إلى القارئ

مؤسسات ثقافية رائدة

بقلم : البشير بن سلامة

تنظيم الهياكل الثقافية بتونس يكاد يكون فريدا من نوعه اذ يمكن من انتشار هذه البنى بعمق فى كامل البلاد بصورة بعيدة عن البيروقراطية فيما ندعوه باللجان الثقافية الجهوية والمحلية المنتقاة عن طريق التطوع والمشرفة عليها اللجنة الثقافية القومية وهى من شانها ان تعطى للثقافة الدفع الحقيقى النابع من حاجيات المنطقة وتطلعاتها فى هذا الميدان .

وهذه اللجان الثقافية تستند الى جملة من البنى الاساسية الثقافية من دور ثقافة ومكتبات ومتاحف ومسارح تتولى أمرها وزارة الشؤون الثقافية . وكلها قد لقيت العناية منذ عشرين سنة وصدرت منذ أكثر من سنة النصوص التشريعية التى تنظمها وتعطيها الدفع الضرورى لتتجدد وتساير تطور المجتمع .

ولكن هذه الهياكل رغم أهميتها وقيمتها التى لا يشك فيها تبقى مشلولة اذا هى لم تستند الى مؤسسات أعظم وأبعد مستوى ومدى تزودها بالمادة الثقافية وبالاطار البشرى الكفيل بجعلها خلايا تتلاقى فيها الطاقات المبدعة والمنشطة للحياة الثقافية .

ولهذا السبب بعثت فى هذه السنوات القليلة (منذ سنة 1981) المعاهد العليا ويؤمها التلاميذ المتحصلون على الباكالوريا لقضاء أربع سنوات

كاملة سواء فى دراسة التنشيط الثقافى أو الفن المسرحى أو الموسيقى . ومن شأن هذه المعاهد العليا أن تزود البلاد بالطاقات الثقافية المبرزة فى الخلق والابداع وكذلك التنشيط الثقافى وهى وإن كان عدد المتخرجين منها قليلا كفيلة بأن تجر الطاقات الاخرى المتكونة ميدانيا الى الاساليب والطرق الرائدة فى ميدان أصبح يوما بعد يوم حاجة ملحة فى حياة البشر ألا وهى الغذاء الثقافى .

ولكن هذه السنة كانت حصيلتها من حيث المؤسسات الثقافية الكبرى عظيمة اذ يمكن أن تعد أربعا لها قيمتها فى التأثير على مستقبل الثقافة فى هذه البلاد :

- مركز الدراسات والتوثيق للتنمية الثقافية .
- المسرح الوطنى .
- صندوق التنمية الثقافية .
- المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات .

أما مركز الدراسات والتوثيق للتنمية الثقافية فانه برز كحاجة أكيدة لتخطيط العمل الثقافى وبرمجته وتمكين وزارة الشؤون الثقافية من التصرف فى خلية متعددة الاختصاصات دراسة وبحثا لتقييم المشاريع وتقدير تأثيرها تربويا واجتماعيا وثقافيا . ومن أهداف هذا المركز القيام بالابحاث المنهجية وضبط وسائل التحليل والتقييم فى ميدانى التنمية والتخطيط الثقافى وكذلك انجاز نظام إعلامى وإحصائى خاص بحقل الثقافة وإعداد دليل سنوى وفهرست لمصادر الاعلام التوثيقى فى البلاد وتنظيم شبكة مدمجة للتوثيق والاعلام لدى وزارة الشؤون الثقافية وكذلك إنشاء نظام متناسق بين المصالح المنتجة للمعلومات . ويهدف المركز أيضا الى توسيع الشبكة الى المؤسسات التابعة للوزارة وبعث بنك المعطيات الثقافية التونسية وتسييره وربط بنك المعطيات الثقافية ببنك اليونسكو للمعطيات الثقافية وبنوك مختلف المنظمات الثقافية الدولية .

وفيما يخص المسرح الوطني التونسي فان الحاجة الى استقطاب الكفاءات الفنية التونسية وتمكينها من انتاج اعمال مسرحية رفيعة في مستواها الفكري والفني من دون اللجوء الى البيروقراطية المضرة بالانتاج أصبحت أكيدة خاصة وأن الفرق المحترفة والهاوية كثر عددها وتحتاج الى مد يد المساعدة ماديا وفنيا . وسيكون المسرح الوطني بهياكله القانونية وتنظيمه التنظيم المحكم والمرن قادرا على اثراء التعبير الفني والارتقاء بمستواه والمساهمة في دعم المهنة المسرحية وسيساعد ويشارك في الانتاج الفكري والفني الرفيع والعمل على ترويجه وتوزيعه مساهما في التنشيط الثقافي وعاملا على اشعاع الانتاج المسرحي التونسي على الصعيدين العربي والعالمي مستلهما في ذلك التراث الثقافي المسرحي قوميا وعالميا . وستعمل هذه المؤسسة على تقديم عروض مسرحية متنوعة من الرصيد الوطني والقومي والعربي من دون أن تتفصى من القيام بدور رائد تجاه الفرق المسرحية التونسية الموجودة في الساحة الثقافية منظمة التربصات الفنية والرسكلة الكفيلة بالنهوض بفرقنا المنبثة في الجهات .

أما صندوق التنمية الثقافية فقد جاء تلبية لحاجة ملحة ابرزتها الدراسة العلمية الاقتصادية اذ تبين أن المجهود الذي تقوم به وزارة الثقافة ينصرف أغلبه من حيث الميزانية في التصرف والتسيير والتكوين ولا يعطى للخلق والابداع الا نسبة ضئيلة لا تتجاوز 9 بالمائة (ميزانية سنة 1983) وقررت الحكومة على هذا الاساس أن تخصص ميزانية إضافية تقدر بثلاثة مليارات من المليمات وهو من شأنه أن يرفع نسبة التشجيع على الخلق والابداع الى ما يناهز الاربعين في المائة من ميزانية التصرف .

وسيكون هذا الصندوق مخصصا أساسا الى شراء الكتب والافلام الثقافية والعروض المسرحية والموسيقية وبرامج المهرجانات وكل انتاج يتعلق بثقافة الاطفال وهكذا ستمكن هذه المؤسسة من تحقيق غايتين كبيرتين وهما تشجيع الخلق بشراء أجوده وأحسنه وتنشيط الحياة الثقافية اذ ستتمكن وزارة

الثقافة من تعمير المكتبات العمومية بالكتب ودور الثقافة والشعب والمسارح بالافلام الثقافية والعروض المسرحية والموسيقية .

اما المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات التى سيجد القارىء الكريم ملفا يعرف بها فى هذا العدد ستكون ملتقى للشرق والغرب يتم فيها الحوار بين الدارسين والمبدعين التونسيين ونظرائهم فى أوطان اخرى وستعمل على اقامة الجسور بين ثقافتنا وثقافات مختلفة .

وهكذا يمكن القول بأن هذه المؤسسات الثقافية رائدة بالمعنى الذى يفهم منه أنها تبعث لأول مرة فى بلادنا ولكنها رائدة أيضا فى العلاقة الموجودة بينها وفى اندراجها فى سياسة ثقافية فريدة من نوعها تستند الى الدولة من حيث الامكانيات والوسائل وتعطى للمثقفين والمبدعين والخلاقين المجال فسيحا لصنع الثقافة فى جو من الحرية والمسؤولية الكفيلتين لجعل الثقافة بعدا أساسيا من أبعاد التنمية الشاملة وغاية نبيلة للنهضة بالانسان وربطه بالحضارة الانسانية .

البشير بن سلامة

مولد مبارك وسنة جديدة

بمناسبة مرور المولد النبوي الشريف وحلول السنة الميلادية الجديدة ترجو لكم أسرة « الفكر » مولدا سعيدا وعاما جديدا ملؤه الحب والوئام .. والأمن والسلام .

وكل عام والفكر بخير

ملف حول بيت الحكمة

التأمت يوم 6 ديسمبر 1983 برئاسة الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول الدورة الاولى للمجلس العلمى للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) وفى 7 ديسمر 1983 استقبل الرئيس الحبيب بورقيبة أعضاء المجلس وقد أحببنا فى هذا العدد أن نعطى للقراء الكرام فكرة عن هذه المؤسسة المجمعية الجديدة بالاقتصار على نشر الكلمات التى ألقيت فى افتتاح هذه الدورة بصورة علنية تاركين ما تم فى الجلسات الاخرى الى نشرة المؤسسة الخاصة بالمداولات اذ علاوة على المناقشة فى البرامج المضبوطة لتكون محور العمل فى سنة 1983 سواء فى الترجمة أو التحقيق أو التاليف أو غير ذلك فان محاضرتين ألقيتا حول موضوعين هامين يتعلقان باللغة العربية والاشعاع الثقافى ألقاهما الدكتور عبد القادر المهيرى والاستاذ الطاهر قيقة .

ونحن نعد القراء الكرام الى اننا سنواكب أعمال بيت الحكمة كلما دعت الحاجة الى ذلك مطلعين إياهم على كل ما يجد فى هذه المؤسسة .

ـ الفكر ـ

كلمة الأستاذ محمد مزالي
الوزير الأول

يُشرّفني ان افتتح باسم المجاهد الأكبر الرئيس الحبيب بورقيبة اعمال المجلس العلمي للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) في دورته الأولــى .

واني لَسعيد بِأَنْ اتحدث امام هذا الجمع من جلّة العلماء وصفوة الأدباء ونخبة المحققين واهل الفن وكافة الضيوف وان اتقدم اليهم جميعا باخلص التحية ، وارحّب بالسّادة اعضاء المجلس العلمي الذين قدّروا المعاني الكامنة في بعث هذه المؤسسة الوطنية ، فلم تقعد بهم اعمالهم عن الاستجابة الكريمة ليكونوا من اعضائها الدائمين واسرة عملها وروّاد خططها بما ستقدمه تجاربهم الثرية في مجالات الانتاج والابداع . ان انتماء هذه النّخبة من العلماء والباحثين والأدباء والفنانين المنتسبين الى اقاليم شتّى من عالمنا المعاصر من اصدقائنا واشقائنا ورجال الثقافة ببلادنا ، من ذوي الخبْرة المتميزة ذات العطاء الانساني الثر ، ومنهم من أهَّلتْهُم قدراتهم العلمية الى منازل التقدير العالمي التي تَوّجتْها جوائز عالمية ان انتماء هؤلاء لهذه المؤسسة (بيت الحكمة) لَأحْسَن ضمان لِسلامة مسيرتها ونجاح اعمالها وتحقيق اهدافها .

ان الفعاليات التي تَتَلَمّسها الدولة من ارساء هذه المؤسسة والتي اعتبرتها في مبدا تكوينها ، نابعة من تقدير مسؤوليتها العليا في خلق المناخ الحضاري الذي يَرْعى الافكار البنّاءة ويساعد على لقاحها وتوالدها — في

مضمون شمولي — يسمح للثقافة بان تجنح الى مبدإ التواصل بين الشعوب على اساس الاخذ والعطاء ويضفي عليها روح العالمية بفضل تفتحها واحتكاكها بسامي القيم وان الصيغة التي أُخرجت عليها المؤسسة لهي صيغة جديدة في بعض المناحي ، اذ حاولت ان تستفيد من محتوى التطور التاريخي لمضمون الاكاديمية واساليب عملها وفي حقيقة الامر فان الاكاديمية في الدول ذات التقاليد العلمية المتواصلة يمكن ان تظل ثابتة الطريقة ، محافظة على الاسلوب الذي شَبَّت عليه وعلى التزامها بحدودها المرسومة ، لانها محاطة بمجموعة من المؤسسات ومراكز البحث ودور النشر تقف الى جانبها بنفس الكفاءة لاستكمال الحلقات التي يمكن ان تجعل من الثقافة والمعرفة الانسانية كلا مشاعا بين الناس .

ونحن ان فاتنا في عصور التوقف والتبعية ان نركّز مثل هذه المؤسسات ونصلها بجهدنا ، فانّ فكرة المؤسسة هي ان تكون المنطلق والوسيلة لتَحُثَّ خطى العمل المنتظم في مستوى موازين العصر وتستدرك ما فاتنا في ظروف التقلص والانطواء وتعبّر عن الحركة والجدوى والامتداد في سبيل خدمة الثقافة وقيم الانسان .

وقد اتخذت المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات اسم (بيت الحكمة) مضمونا وشعارا لها استيحاء منها لرمز تاريخي وحضاري في احدى حركات تراثنا البارزة ، ايام الخلافة العباسية ، اذ كانت بيت الحكمة آنذاك مجمعا علْميّا ومرصدا فلكيا ومكتبة عامة استقطبت صفوة العلماء ونُخبة من كبار المترجمين عكفوا على نقل امهات الكتب من السّريانية واليونانية والفارسية والهندية والقبطية والعبرانية واللاتينية منهم : يُوحنّا بن البطْريق والحَجّاج بن مَطَر وابن لُوقا البَعْلَبَكّي وعبد المسيح ابن نَاعِمة الحِمْصي وثابت ابن قُرّة الصّابي وحُنَيْن بن إسْحَاق الذي ترجم وحده الى اللغة السريانية مائة رسالة من رسائل جَالِينُوس ومدرسته العلمية ونقل الى اللغة العربية تسعا وثلاثين رسالة والعديد من الكتب الفلسفية من اعمال افلاطون وأرسْطو وبَطْلَيْمُوس وغيرهم .

ولم ينقض القرن الثالث الهجري ، / التاسع الميلادي / ، حتى كانت اكثر الكتب اليونانية في العلوم والرياضيات والفلك والطب والفلسفة قد نقلت الى اللغة العربية .

وانه لمن أجلّ الاحداث واعظمها شانا في تاريخ الانسانية انتقال العلوم والفلسفة انتقالا مستمرا من الشرق القديم الى اليونان وبلاد الروم ثم الى دار الاسلام شرقا وغربا بما في ذلك افريقية وصقلية والاندلس ومنها الى عامة اروبا .

ان الحضارة العربية الاسلامية لَمَدِينَةٌ لِبَيْتِ الحكمة بما يُسميه ابن خلدون باليقظة الكبرى .

ولقد كان من اثر ذلك ان يجد نظام « بيت الحكمة » تحقيقا له في مدينة رقّادة ايام امارة الاغالبة فيما يذكر بعض المؤرخين ، وفي هذا ايماء للأُصُول الحضارية التي ألمعنا اليها والتي تقدم السند الثقافي بافريقيا منذ عهد القيروان المبكّر ، وهو السند الموصول الذي يعلل ابن خلدون بامتداده تواصل العمران البشري . ان ذاك السند هو الذي مكّن لاسهام تونس في الثقافة العربية الاسلامية من أن تشع اولا في القيروان وسائر مدن افريقية ثم خارج حدودنا في الآفاق المغربية والاندلسية . وان السند العلمي المتواصل في المدرسة القيروانية هو الذي امتد الى جنوب ايطاليا في دير منتي كاسينو (Monte Cassino) الذي انشأه الملوك النرمنديون وسيّره لاول مرة القسيس المسيحي قسطنطين الافريقي في القرن الحادي عشر للميلاد وامتد ذلك السند العلمي الافريقي الى جامعات نَابُولِي وَبُولُونيَا وَبَادُوفَا وكان من أقوى الاسباب لانطلاق النهضة العلمية في ممالك اروبا مرورا بايطاليا والاندلس .

وهذا السند الثقافي نفسه هو الذي عمل على ابراز المدرسة الطبّية القيروانية التي اوجدت حركة تأليف وتجارب جادة ، فبرز العدد الجم من الرجال الذين ملأوا الدنيا بانتاجهم كالطبيب الصيدلاني احمد ابن الجزار

المُتَوَفَّى حوالي 369هـ / 980م ، وهو الذي غمرت شهرته بقية اسرته المتضلعة في علم الطب والصيدلة الغالبين عليه ، بين العلوم العقلية والنقلية ، فكان تأثيره عميقا في الثقافة – كما كان نافذ الاشعاع في اوربا عن طريق الترجمات اللاتينية واليونانية والعبرية الى اواخر القرن السادس عشر ، ولم يزل اهل الاختصاص في الطب والصيدلة يستظرفون الى يومنا هذا كتابات ابن الجزار ويجدون فيها رُؤًى عصرية في طب الاطفال وطب المشائخ وطب الفقراء ومنافع الاغذية .

وان تونس ، وفاء منها لِذِكْرَاه ، تحتفل بِأَلْفِيَّةِ ابن الجزار وذلك باشارة من الرئيس الحبيب بورقيبة وتحت سامي اشرافه وقد كان لي شرف الاعلان على انطلاق برامج احتفالاتها يوم 24 اكتوبر 1983 بكلية الطب بسوسة .

واني لأُعَبِّرُ عن ارتياحي وتشجيعي لمبادرة وزارة الشؤون الثقافية الى جلب صُوَر من مخطوطات ابن الجزار الكثيرة النَّفيسَة والمُنْتَشِرَة في مكتبات العالم شرقا وغربا ، وان ذلك ليقوم دليلا على الاهمية التي تكتسيها هذه المخطوطات وعلى حرص الناس من مختلف الاجناس والبلدان على اقتنائها وحفظها .

كما اني ابارك الشروع في تحقيق كتابه الشهير « زاد المسافر » بعناية الباحثين التونسيين المنتمين الى كليات الطب والصيدلة والاداب باشراف المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات .

وانما الذي جرني الى الحديث عن شخصية ابن الجزار هو انتماؤها – في مألوف اصطلاح ابن خلدون – الى « سند ثقافي صحيح » تدعم بامتزاج الثقافات أخذا وعطاء ، عن طريق الترجمات ومنتوج صفوة علماء وادباء القيروان وسائر عواصم افريقية زمن دولة الاغالبة وخلافة الفاطميين والامراء الصنهاجيين وغيرهم وتواصل بهم السند الثقافي بافريقية وسائر بلاد المغرب وتجاوز الى ربوع قلورية (Calabre) وقوصرة (Pantellaria)

وصقلية وسردينيا ومالطة وبلاد الأندلس ولم تتراجع هذه البنية الحضارية الا بانكماش العرب وعزوفهم عن الاصغاء لما يجد ويبتكر في الساحات الثقافية العالمية ، خصوصا في الاقطار التي تحولت اليها علومهم وفنونهم وبالاخص أوربا فبنى عليها الغرب المسيحي بتطعيمها وتطويرها النهضة العلمية ثم الثورة الصناعية من بعد . فلم تعد الكفاءات العلمية والفنية المبدعة تظهر بافريقية وسائر انحاء العالم العربي والعالم الاسلامي في عصور التدني الحضاري بها الا صدفة ، وتظل تلك الكفاءات مغبونة مجهولة مقبورة في مواطنها الاصلية بل ينظر اليها نظرة استنكاف من بدع محظورة فلا يستفيد منها العالم العربي الاسلامي حيث نبتت وابدعت وانما تستاثر بها الثقافات الناهضة آنذاك باروبا عن طريق الترجمات كما حدث بالنسبة الى ابن خلدون علامتنا المبتكر لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الذي سماه عمرانا بشريا وهو علم يبحث في شؤون البشر من حيث الملك (اي الدولة) والكسب (اي الاقتصاد) والصنائع والعلوم . وكان ابن خلدون قد عرف في الترجمات اللاتينية باسم « سيلادون » كما افادنا بذلك مثلا « بيار تيي » (Pierre Tillet) في دراسة له نقلها الى العربية المرحوم محمد فريد غازي في مجلة الفكر بعدد مارس 1961 ، فكان تواصل السند الثقافي الصحيح العربي الاسلامي الذي علل ابن خلدون بانقطاعه تراجع عز حضارتنا في عصور الانحطاط موكولا الى الثقافات الناهضة شرقا وغربا وخصوصا باروبا التي ادركت جدوى الفكر الخلدوني فافادت منه كثيرا واعادته الينا اولا عن طريق الجادين من علماء الاستشراق قبل ان يكتشفه الباحثون من علمائنا . وهذا المثال المستمد من تاريخ التزاوج الثقافي العربي الاسلامي والعالمي من شانه ان يعمق مقاصدنا في انشاء « بيت الحكمة » مجددا في عهد الاستقلال الزاهر .

ان اندفاع حركة الترجمة في تراثنا القديم ، حول المعارف والثقافة الراقية وقتها الى لغتنا ، أرسى قاعدة للعمل الرصين ، وكان من آثار ذلك اثراء المصطلح والاتصال باحدث ما انتهى اليه الفكر الانساني من آفاق إذ ذاك ، وقد ساعد ذلك على وضع الانسان العربي في مستوى المعاصرة الحقيقية ، ملما بثقافة جيله .

الا ان الترجمة وقتها كانت عملا يتم من جانب واحد : فلقد أخذنا ما يُغَذِّينا ويُثْرينا ويُبْرِدُ غُلَّتَنَا عندما أَحْسَسْنَا بضرورة التفتح على الغير والاخذ عنه ، واخذ الغرب عنا عندما ألمَّتْ به الحاجة نفسُها ، فالسعي الى نقل العلوم وفنون الثقافة لم يكن هدفا مقصودا في الماضي ، بل هو سمة نبيلة يتفوّق بها عصرنا . لذلك عندما نفكر في الترجمة وفتح النوافذ من خلالها على غيرنا نجهد الجهد الأوفق بان ننقل اليهم ثقافتنا وفنوننا طلبا للتعارف والتقارب والتفاعل ، واملا في ان تتصافح الاجيال المتعاصرة تحت مظلة الثقافة في خدمة حضارة الانسان .

وان التحقيق لهو من الايمان بوحدة الثقافة الحضارية ، فكما ان روائع الابداع العالمي هي روائعنا ، فان في حضارتنا كنوزًا لم يرها الناس ولم تخرج الى الثقافات المعاصرة لتقدم صورة التجربة الناظمة العميقة ، وبذلك فان هذا التراث يمكن ان يسهم في اثراء الثقافة والحوار بقدر ما يكمن فيه من طاقات واشعاع ، فالمحققون هم رواد الاكتشاف والتوثيق ، ومهمتهم جلية جليلة .

لقد تحدثت بشيء من الاطناب عن « بيت الحكمة » وتواصل السند الثقافي العربي الاسلامي الصحيح بافريقية — وهو اخص خصائص الشخصية التونسية — اذ ان الحضارة الاسلامية هي صنو لغتنا وهي في اصل سلوكنا ونظرتنا الى الوجود والروح الطابعة لأنْمَاط عيشنا واليَنبوع الدافق فينا ، فذاك لا يعني ابدا نكراننا لامجاد افريقية قبل الاسلام كالعالم الفلاحي ماغون (Magon) ورائد القصة أبُوليُوس (Apulée) وفقيه المسيحية القديس اغستنوس (St Augustin)

الا ترى ان سندنا الثقافي — على تَنَوّع مصادره — ظل صورة لهويتنا عبر العصور وتعاقب الدول والحضارات وحتى توالي الغُزَاة الطامعين فينا ولم تكن العناصر المُكَوِّنة لسندنا الثقافي نُسَخا طبق الاصل للمؤثرات الثقافية الواردة علينا من خارج حدودنا بل ظل سندنا الثقافي متميّزا هاضما لجميع المؤثرات مضيفا اليها الجديد ، موسوما بسمات

شخصيتنا ، فلا اللوحات ، واصالة ايحاءاتها الافريقية التونسية ، هي نفس الانماط الفسيفسائية المحفوظة في متاحف شبه الجزيرة الايطالية ، ولا فن العمارة الاسلامية عندنا بطرازه الفذ ، هو عين معمار المدن المشرقية وان كان بين آثارها وآثارنا تشابه وتناغم في روائع النقائش وبدائع الزخارف ولطائف الاشكال .

وان تونس بطبيعة تفتحها شرقا وشمالا على ضفاف البحيرة السخية لحوض البحر الابيض المتوسط — مهد الحضارات — وغربا وجنوبا على شقيقاتها وصديقاتها في المغرب والمشرق والقارة السمراء ، ثم بحرصها القوي على ان تتحمل بكل دقة واخلاص قدرها المتمثل في كونها مصْهَرَ الحضارات وارضَ اللقاء والاخاء قد لعبت دورا هاما ايجابيا يتجاوز حدودها عبر العصور .

ومازالت — على صغر حجمها الجغرافي — في ذاك الدرب مواصلة مسيرتها الانسانية مضطلعة بدورها الحركي ، مساهمة في انماء التراث البشري الذي ما كان قط وقفا على احد بل هو كسب متجدد لحضارة الانسان .

واذا ظلت تونس مخلصة لنداء الانسان الجبلّي فيها — وانها لارض اللقاء والمحبة — فلا عجب ان يجهر احد شعرائها اللاتينيين في القرن الثاني قبل مجيء المسيح — وهو « تيرانس القرطاجي » (Térence de Carthage) الذي اصبحت مسرحياته الهزلية امثلة محاكاة من قبل الكلاسيكيين الفرنسيين خصوصا « موليار — بقولته الشهيرة : « انا انسان ، وكل ما يخص الانسان ليس غريبا عني » ، فيعانق تيرانس القرطاجي (نسبة الى قرطاج) بنفثاته الانسانية مع الفارق الزمني الشاسع والتباين العقائدي والتكويني الكلي — قول الشاعر الناقد الاندلسي التونسي ابي الحسن حازم القرطاجني (نسبة الى قرطاجنة المرسى الاندلسي) ، المتوفى عام 684هـ / 1285م ، من كتابه « منهاج البلغاء وسراج الادباء » : «وجب ان تكون اعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت علقته باغراض الانسان » وان هذه النظرة ذات الشمول الانساني التي تشد حازم القرطاجني الى تيرانس القرطاجي لَتَمُرّ بقطاع

آخر من مقاطع المعرفة في هذا الوطن هي المعرفة الطبية التي كان ابن الجزار احد روادها النافذين يردد: « إن اكثر الناس فضلا واظهرهم للخير فعلا مَنْ صَرَفَ رأيه وهمه ولطيف عنايته وفكره الى الاجتهاد في مصلحة كل من كان » وان « لا دليل على سعة علم من يَدّعي صناعة الطب الشريفة اكثر من اظهاره وشرح غوامضه وبذله لعامة الناس فضلا عن الخاصة » . وكل هذه المعاني الانسانية لتتناغم منذ قرون عدة خلت مع تعريفي بالثقافة القومية في كتابي « مواقف » بانها « مع احتفاظها بالجوهر واستيحائها المصادر القومية لا تبقى على الدهر ولا يثبت لها اصل الا اذا جرت الى غاية المروءة الانسانية » .

وإنا لنَستمد انسانية تفكيرنا وعملنا من الفكر البورقيبي الذي غيّر وجه هذا الوطن بالبناء والتشييد ونحت المجتمع الناهض الجديد مُعتبرا الانسان التونسي غاية كل عمل تنموي بعد ان حرره من ربقة الاستعمار وحقق له الكرامة .

ورغم المصاعب الجمّة التي كانت البلاد تواجهها غداة الاستقلال وقلة الامكانات فان الدولة الفتية قد وجهت عناية بالغة للثقافة ولعل تونس هي من أُولى البلدان العربية واقطار العالم الثالث بل ربما هي السابقة في ذاك المحيط الجغرافي الى انشاء وزارة خاصة بالشؤون الثقافية ، وَوَضْع خطّة لتنمية ثقافية متكاملة مع مخططات التنمية الشاملة فانشأنا لهذا الغرض اجهزة لحماية التراث ونشر الكتاب وتوزيعه وانتاج الفيلم وترويجه ، وركزنا هياكل مُساعدة على تفجير الطاقات المُبْدعة ، ومؤسسات لتكوين الاطارات الثقافية وشبكات للتنشيط الثقافي من دور للشعب والثقافة ومن مكتبات عمومية بمختلف اصنافها ومراكز للفن الحديث ، ومتاحف تزخر بالكنوز ، واستصْدَرْنَا القوانين لحماية المُبدعين وتشجيعهم على الخلق والانتاج .

وبعد ثلاث سنوات اخذنا منعرجا جديدا متمثلا في ادراج الثقافة في الدورة الاقتصادية للبلاد باعتبارها قطاعا مُنْتجا على المستوى المعنوي والمادي لا باعتبار الثقافة مظهرا من مظاهر التنمية وَنتيجة من نتائجها فحسب

وانما باعتبارها عاملا لبناء التنمية على أُسُس اقتصادية وحضارية متينة حَرِيَّة بتحقيق توازن المجتمع التونسي وحمايته من ضروب القلق والتشاؤم والهزّات وبتوفير مجالات كريمة لعمل الناس .

واذ صفت رؤيتنا وصحّ عندنا العزم على اعطاء الثقافة دفعا جديدا فان الحكومة التونسية قد وفرت ومازالت توفر المزيد من الاعتمادات لتطوير ميزانية وزارة الشؤون الثقافية من جهة كما اهتدت من جهة اخرى الى مسالك غير مطروقة من قبل لتمويل برامج التنمية الثقافية وتشجيع الانتاج.

وها هي تُقْدِم الآن على انشاء صندوق يتدخل في التمويل المباشر للابداع الثقافي والانتاج بَدْءًا من السنة القادمة . وهذا مصدر تمويل جديد ينضاف الى امكانات ميزانية وزارة الشؤون الثقافية المتطورة بصفة ملحوظة منذ ثلاث سنوات . وان الصندوق المذكور سيجسم نوعا آخر من تصورنا لمسالك غير مالوفة في تمويل العمل الثقافي وتحقيق الرؤية الطلائعية .

ليس المقام بسامح لي ان أتَبَسَّطَ في الحديث عن كل الانجازات الهامة التي حققناها في الميدان الثقافي منذ الاستقلال وخصوصا ما ظهر للوجود في السنوات الأخيرة واردنا به اعطاء دفع جديد للثقافة واحلالها منزلتها الحقيقية في التنمية الشاملة للبلاد كتطوير معاهد تكوين الاطارات ، وإحْداث معاهد اخرى عالية ، وبعث مراكز دراسات الحضارة التي تَعَاقَبَتْ على هذا الوطن ، ومَرْكَزِ التوثيق والدراسات للتنمية الثقافية الذي دخل الآن طَوْرَ الإعْلاَمية .

وجاء قانون الدولة التونسية عدد 90 لسنة 1982 الباعث للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ليُضِيفَ كَسْبا جديدا لهَيَاكلنا التنموية الثقافية أمْلَتْهُ حاجتنا الى مؤسسة مجمعية علمية بموجب المسؤولية الحضارية .

اجل ! ان المسؤولية الحضارية الرائدة لوَطننا عبر مراحله التاريخية مُسَجّلة محفوظة بما لا يُحصى من الوثائق الخَطّية والاثرية .

وان ما قطعته تونس من خطوات في مجال التنمية التربوية والثقافية قد ابرز بالاضافة الى تعليلاتنا السابقة حاجتنا الى مؤسسة ثقافية مجمعية علمية ومخبرية تجريبية وعملية تنشر ما تنتجه فروعها واقسامها وتكون ملتقى للشرق والغرب مؤهلة لاستقطاب دارسين ومبدعين تونسيين وغير تونسيين مستعدة لخدمة الثقافة بشتى انواعها وباساليب وطرق لا تتسع لها مؤسساتنا الاخرى ، مصغية الى ما يجد في الساحات الثقافية العالمية من خلق وابداع .

واننا لنريدها مؤسسة تعمل على دعم الحوار الجاد الدائر باستمرار بين الثقافات والحضارات ، وتربط أواصر التعاون مع المؤسسات العالمية التي ان لم تكن بالضبط نظيراتها فقد تتحد معها في بعض الاهداف ، وذلك لاستكشاف اهم المستحدثات الثقافية والانتفاع بالتجارب الميدانية الطريفة والتفاعل معها تأثرا وتأثيرا أخذا وعطاء ، حفزا للهمم الصادقة على الابتكار والابداع الفكري والفني .

وما يسهل مهمة المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ويكسبها مرونة في التصرف انها تستمد أصول قانونها الاساسي من تشريعات المؤسسات الاقتصادية وتنفرد عنها بطابعها الثقافي العلمي الاكاديمي ، وهذا نمط جديد طريف في مؤسساتنا وتشريعاتنا .

ولا شك انها بهيكلتها المشتملة على اقسام علمية ومخبر للتجديد والابداع ستكون مصدر انتاج متنوع مكتوب ، ومسجل مسموع ، ومرئي يجمع بين الترجمات الادبية والعلمية من العربية واليها ، والبحوث والدراسات ووضع المصطلحات وتحقيق النصوص واستغلال المستحدثات التقنية والآلات العصرية لإجراء التجارب المخبرية الطريفة في الميادين اللغوية والفنية كاختبار عقاقير جديدة لمعالجة المخطوطات واجراء التجارب لتطوير الطباعة العربية الخ .. تجاوزا واستكمالا للاستكشاف والتقصي النظريين .

واننا لنعتقد ، بفضل ما ننتظره من انتاج خصب ، ان مؤسستكم ستكون حريصة كل الحرص على الإكثار من قنوات الاتصال واقامة

العديد من الجسور بين الثقافات لتنقُلَ إليْنا تُراثنا وفكرنا وتحمل لنا منها أَرْوَعَ ما أَبْدَعته فتكونَ بذلك خادمة في الآن نفسه حضارتنا وحضارة الآخرين بما يحقق حضارة الانسان .

وان وجود هذه الصفوة من العلماء الذين ينتمون الى عدد كبير من البلدان ــ التي تربطنا بهم اكثر من صلة سواء في القديم او في الحديث ــ مع نخبة من العلماء التونسيين من شانه ان يعمل على استمرار هذا السند الثقافي الضارب في القدم بهذه الربوع وان يحقق ما نطمح اليه من وجود حَلَقَات دائمة من العلماء في هذا البيت يتم فيها الحوار الحقيقي بين الثقافات المُجَسَّم في الاعمال الملموسة التي ستتولى المؤسسة نشرها وترويجها .

فاليهم اتوجه بالتحية البليغة واشكرهم على ما أَوْلَوْا مؤسستنا من عناية فائقة ومن ثقة بهذا المشروع الثقافي الذى يسهمون في بعثه ونموه وتطويره عسى ان نحقق به الآمال ونبلغ عن طريقه شانا في مجال التعاون .

لقد تعلقت همتنا باهداف انسانية نبيلة في هذه المؤسسة التي اخترنا لها « بيت الحكمة » اسما مختصرا بليغا اضفنا اليه صورة الاسطرلاب في شعارها رمزا للمعرفة والتوجه الصحيح والتفتح على العالم . وانا لَنَتَأَمَّل ان تكون هذه المؤسسة بحق تواصلا مجددا « لبيت الحكمة » الذي نبعت منه اليقظة العربية الاسلامية الكبرى وازدهرت بواسطته العلوم والفنون ، وكان ملاذا وموئلا للعلماء الوافدين اليه من اقطار الارض .

ان مستقبل حضارة الانسان لا يعترف بصراع الثقافات وغلبتها وتفوقها ، فقد كان ذلك تقليدا من اساليب الماضي مستمدا من تقاليد التحدي المستمر ، وانما يتجه بثبات الى تصور مثالية ثقافية مشتركة ، تصل ما بين الثقافات المتقابلة ، وتدخلها في حوار متفتح حميم يقربها من التلاقي والتمازج ، وفي ذلك قرب من غاية الانسان التي جاهد في سبيلها عبر حضارات التاريخ .

محمد مزالي

كلمة الأستاذ البشير بن سلامة
وزير الشؤون الثقافية

انه لشرف عظيم أن يلتئم بتونس هذا الجمع الكريم من أهل الذكر وأولي الاختصاص ورواد المعرفة من أنحاء كثيرة من العالم ممن تأكدت شهرتهم وذاع صيتهم ، وسمت منزلتهم في مجال التأليف والبحث والإبداع . فاسمحوا لي أن أتوجه اليهم جميعا بجزيل الشكر وصادق الامتنان على تفضلهم بقبول دعوتنا ، والانتساب الى المجلس العلمي للمؤسسة الوطنية التونسية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) تجشمهم أعباء السفر ليحضروا معنا هذا الاجتماع الاول للمجلس العلمي للمؤسسة ويسهموا بما عهدناه فيهم من سعة المعرفة ورسوخ التجربة ودقة النظر وسداد الرأي في اثراء الاختيارات الاساسية لهذه المؤسسة الناشئة الطموح ودعم نشاطاتها الثقافية وبرامج عملها ذات الطابع الانساني .

ولقد اخترنا لهذه المؤسسة ، كما يتبين من قانون تأسيسها ، أن تكون ذات صبغة ثقافية هادفة الى تحقيق اغراض مضبوطة تخرج عن التعميم الذي يعز تحديده بل أردناها مؤسسة ذات غايات محدّدة متميّزة عمليّة . وهي الى ذلك لا تعدو أن تكون خادمة لاهداف فكرية انسانية تتجسم بالخصوص في الاسهام الجاد في اثراء حركة الترجمة من العربية واليها بما من شأنه أن يغني الثقافة العربية بمزيد من عناصر القوّة وامكانات الاستيعاب لنتاج ثقافات انسانية متنوعة ، ويزودها بمستجدات الثقافات المعاصرة ، ويتيح الفرصة للتعريف بالانتاج الثقافي العربي على مستوى واسع وبالاعتماد على لغات اجنبية

متعددة حتّى يوظف هذا الانتاج ضمن الثقافة الانسانية بمفهومها الواسع ، ونطمح بذلك لان نحقّق من الصلات الحية والتفاعل المستمر بين الثقافات ما كان دائما ، وعبر التاريخ ، سرا من أسرار ازدهار المعرفة ودفع حركة التقدم والازدهار .

وتتجسّم أهداف المؤسسة الوطنية أيضا في حفز الهمم وتوفير الشروط الملائمة لانجاز الدراسات القيمة والبحوث الجادة في مجال التحقيق العلمي للنصوص . وبذلك تستطيع هذه المؤسسة الوطنية الناشئة أن تشارك بدور ايجابي في صيانة التراث واثرائه بمستجدات الثقافة الحديثة والمعاصرة بكل ما توفر فيها من امكانات التمحيص وأساليب الدراسة ومناهج البحث ، وابراز هذا التراث واحيائه على نحو يوظف كنوزه الخالدة ، بصفة أمينة واعية مركزة ، ضمن رصيدنا الثقافي المعاصر فاذا هي عناصر قوة وانماء لا على المستوى العربي وحده بل على المستوى الانساني ايضا .

ومن أهداف المؤسسة الوطنية ايضا دعم الحركة الفكرية والادبية التي تؤازر الخلق الفكري والفنّي - نقدا وبحثا ودراسة وجمعا وتأليفا حتى يمكن - انطلاقا من هذه المؤسسة - التعريفُ بأخص خصائص الثقافة التونسية في تجاوبها مع ثقافات العالم وتلاحمها مع التيارات الفكرية والادبية والفنّية السائدة في العالم .

انطلاقا من هذه الاهداف الثقافية وُضع تصورنا للانظمة والهياكل التي تؤلف المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات فشملت معهداً وطنيا للترجمة الادبية والعلمية ووضع المصطلحات ، ومعهدا لتاريخ النصوص وتحقيقها ودراستها ، ومخبرا للتجديد والابداع ، كما شملت قسما للدراسات من أجل الاشعاع الثقافي التونسي ، ومكتبا مركزيا للمنشورات .

وانطلاقا من ايمان تونس بالعمل الثقافي الجاد ، وبدورها في اثراء الثقافة على المستوى التونسي والعربي والانساني ومما عرف لدى

المجاهد الأكبر الرئيس الحبيب بورقيبة من تشجيع للعمل الثقافي وتمسك بالقيم الانسانية ، وانفتاح على نتاج الفكر الانساني في أوسع مجالاته وأخصب عطائه ، وثقة في الانسان وامكاناته الفكرية والذهنيّة وفرت الحكومة التونسية الاعتمادات اللازمة لنشاطات هذة المؤسسة الناشئة بعناية شخصية من فخامة الرئيس ، كما وفرت لها الظروف المادية الضرورية للعمل . فاسمحوا لي بهذه المناسبة أن أرفع باسم العاملين في هذه المؤسسة والمتعاونين معها اسمى عبارات الشكر الى فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة الذى قبل ان تكون الدورة الأولى تحت سامي إشرافه والى السيد الوزير الأوّل الاستاذ محمد مزالي على هذه العناية ، وعلى قبوله رئاسة الدورة الأولى للمجلس العلمي .

ولقد حرصنا في وضع النظام الاساسي وتخطيط اساوب العمل والممارسة بالمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات على أن نجمع بين جملة من الخصائص الايجابية لتؤلف ، في مجموعها ، صيغة طريفة في مستوى الممارسة والمنهج والعمل .

ذلك أننا نطمح لان تكون هذه المؤسسة جامعة بين العمل الاكاديمي بما يتطلبه من الرصانة والاناة والموضوعية والتمحيص من جهة وخصائص المؤسسات الاقتصادية والعملية من جهة أخرى بما يقتضيه ذلك من الحرص على الجدوى والانجاز السريع وتوظيف نتائج العمل على المستوى العمالي .

ولعله ليس من العزيز علينا أن ندرك مثل هذه الغاية ، وقد خططنا لها منذ البدء واعتمدنا على كفاءات متميزة وأسلوب من العمل طريف لا في مستوى ادارة المؤسسة ومجلسها الاداري فحسب بل على الخصوص في مستوى مجلسها العلمي الموقر .

ذلك أننا نعتمد بصفة اساسية على أعضاء المجلس العلمي الاجلاء من مختلف الاقطار الشقيقة والصديقة على أن يكون في جهودهم خيرُ سند لدعم هذه المؤسسة وتحقيق اهدافها المرسومة .

وانـنـا لعلى ثقـة تـامة بأن إسهامهم الايجابي سيكون له أطيب الاثر على مسيرة المؤسسة ومستقبلها ، لما ندركه فيهم من الكفاءات المتميزة وما نعرفه في شخصياتهم من وجوه الفضل والعطاء ولما نُجمع عليه جميعا من الايمان بانسانية الثقافة ومنزلة الابداع وثراء التراث وأهمية تفاعل الثقافات على المستوى البشري لما فيه خير الجميع .

وان ما سيتيحه أعضاء المجلس العلمي من فرص لمشاركة علماء بلدانهم فيما ستقوم به المؤسسة من ترجمة وتحقيق ودراسات وتجارب مخبرية لكفيل بأن يجعل بيت الحكمة ملتقى للعلماء والدارسين من بلاد العالم وهو غرض أساسي في بعث هذه المؤسسة اذ بتلك اللقاءات المتواصلة والمستمرّة يتم ما نرومه من تفاعل الثقافات ودعم حوار الحضارات وارساء التواصل بين الشعوب .

مرّة أخرى أجدد الشكر لاعضاء المجلس العلمي للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ولكافة المدعوين الذين تفضلوا بحضور هذا الحفل البهيج .

البشير بن سلامة

كلمة الدكتور أحمد عبد السّلام
رئيس المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات

انه لشرف عظيم أن أتقدم اليكم بعبارات الاكبار والشكر على تلبيتكم دعوتنا وحضوركم أول اجتماع للمجلس العلمي للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات .

وهو مجلس قبل الانتساب اليه علماء أجلاء من اقطار الوطن العربي ومن دول صديقة يجمعنا واياهم تقدير الفكر والتعلق بقيمه وآثاره .

فبهم نرحب فى بلدهم تونس واليهم والى زملائهم التونسيين أعضاء المجلس من علماء ورجال الفكر نعبر عن امتناننا وشكرنا على استعدادهم للمشاركة فى الاعمال التى نبدأ فيها اليوم .

ان هذا الاجتماع الاول لهذا المجلس العلمى الموقر قد كان محل عناية رئيس الدولة المجاهد الاكبر فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة رئيس الجمهورية التونسية وبانى معالم حضارتنا العصرية . فتفضل سيادته ـ ابقاه الله ـ بمنحه سامى اشرافه . هى يد اخرى اسداها فخامته الى المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ، تضاف الى اياد كثيرة منها تفضله بالامر بانشاء المؤسسة ثم اقراره وامضائه القانون التأسيسى المؤرخ فى 20 ديسمبر 1982 فالى فخامته نرفع اسمى وأخلص مشاعر الاحترام والاكبار والاعتراف بالجميل .

وهذه المؤسسة قد حظيت منذ خطواتها الاولى بعطف السيد الوزير الاول الاستاذ محمد مزالى . وما حضوره اليوم بيننا ورئاسته لهذا الاجتماع الا دليل جديد على هذا العطف . فاليه نتقدم بأخلص عبارات الشكر والتقدير ، كما نتوجه بالشكر ايضا الى السيد وزير الشؤون الثقافية الاستاذ البشير بن سلامه الذى كان فى مقدمة الساهرين على نمو هذه المؤسسة .

ويندرج تكوين هذه المؤسسة الثقافية فى الخطة البورقيبية الحكيمة التى سطرت غداة الاستقلال والتى رمت وما زالت ترمى الى تعميم التعليم ورفع المستوى الثقافى للمواطنين وترسيخ الذاتية الثقافية التونسية العربية المسلمة وضمان التقدم العلمى والفكرى للامة وتمكينها من المشاركة فى الحركة العلمية والفكرية للانسانية جمعاء دون تردد او خوف .

فبعد الجامعة التونسية التى مر على تأسيس بعض معاهدها أكثر من ربع قرن وبعد ان نشطت الحياة الثقافية فى تونس نشاطا لفت الانظار ظهرت مؤسستنا فى الظرف الملائم لها وفى الوقت المناسب ليتلاقى فى ساحتها العلماء الباحثون وأهل الابداع من الادباء والفنانين فيتم بالحوار الحر البناء التعامل والتكامل بين تجاربهم فى ميادين الانتاج المختلفة. وقد حرص المشرع التونسى على ان لا تقتصر فرص اللقاء والحوار داخل المؤسسة الوطنية على التونسيين وحدهم من رجال الفكر بل أضاف اليها فرص لقاء بينهم وبين نظرائهم وزملائهم من مختلف الاقطار الشقيقة والصديقة من الوطن العربى ومن أوطان أخرى افريقية وآسيوية وأوروبية وأميركية ـ ومن هذه الفرص ما يتضمنه نشاط المؤسسة من ترجمة وتحقيق للكتب ودراسات وهو نشاط يقتضى وجوبا وفى جوهره التعاون والتشاور والتفاهم ـ ومن هذه الفرص ايضا وبصورة خاصة هذا الاجتماع الدورى للمجلس العلمى الذى يشمل عددا وافرا من العلماء والمفكرين غير التونسيين بجانب عدد مواز تقريبا من التونسيين . وفى تركيب هذا المجلس العلمى وفى الآمال المعقودة على مداولاته امتداد للسياسة الثقافية التى عرفت بها تونس الحديثة بهدي ودفع من فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة

وهى السياسة التى استوحينا من مبادئها خطة العمل التى نعرضها على المجلس العلمى فى الجلسات الثلاث لهذه الدورة . فبرامج التحقيق وبرامج الترجمة يلوح من عناوين الكتب التى اشتملت عليها الاهتمام بالانتاج الوطنى وبالثقافة التونسية هذا من جهة ومن جهة أخرى يتجلى فيها حرصنا على المشاركة فى تقدم الفكر الانسانى بالاخذ والعطاء اى بنقل أهم ما ظهر من الكتب الى لغتنا وترجمة أهم ما انتجه وينتجه الفكر العربى الى اللغات الاخرى. وسنتوخى نفس الاتجاه فى الدراسات التى نؤمل ان تتم ضمن المؤسسة فى الاعوام المقبلة .

والاولوية التي منحناها في برامجنا للكتاب تحقيقا وترجمة بالقياس الى وسائل التعبير الاخرى ليست وليدة الصدف ونتيجة للظروف وحدها . فنحن ندرك كامل الادراك الدور الكبير الذى اصبحت تلعبه فى الحضارة المعاصرة وسائل الابلاغ الاخرى . لكننا مقتنعون كامل الاقتناع ايضا ان الكتاب لن يعوضه شيء فيما اختص به وهو تمكينه القارىء من التدبير والتفكير . والكتاب تراجعه ما شئت فتنقده . فالكتاب سيبقى أقرب وسائل الابلاغ الى الحوار الحر المبنى على المساواة بين الكاتب والقارىء واحترام الاول لحرية الثانى .

ان النظر فى نشاط المؤسسة السنوى من طرف المجلس العلمى هو – من بعض وجوهه – تنفيذ لمبدأ التشاور الذى يتحكم فى بناها وهياكلها فالخطط السنوية لمساندة الاشعاع الثقافى وتشجيع الابداع وبرامج التحقيق والترجمة تضبط خطوطها العامة وتفاصيلها وترصد الاعتمادات المالية اللازمة لها بعد الدرس الدقيق والمداولات المتعددة فى مجلس الادارة وفى اللجان المتفرعة عنه . ومع ذلك فلا غنى لنا عن معرفة رأى المجلس العلمى فى تلك البرامج بل تنتظر منه اثراءها بمقترحاته والمساهمة الثمينة فى توضيح سبل التنفيذ وأساليب التحقيق ومناهج الترجمة وما يجانسها من وجوه الارشاد المتعددة التى يحق لنا ان نرتجيها من واسع علمكم وطويل خبرتكم وستجدون فى الوثائق التى تحويها ملفات هذا الاجتماع اوراق عمل متعلقة بعدد من مشاريع التحقيق والترجمة عرضناها عليكم لاكمالها او تحوير محتواها .

الا ان هذا العمل التوجيهى والنقدى على أهميته لا تتمثل فيه وحده مهمة المجلس العلمى بل الاهم من المهم فى تلك المهمة انما هو الدور الاكاديمى الذى سيخصص له قسم من مداولاتنا فى هذه الدورة والذى يجدر بى ان اشير اليه فى كلمتى هذه ولو باشارة وجيزة لا تفي بتعدد نواحيه وواسع آفاقه .

ان تعاملنا مع التراث المكتوب الذى جعلنا له هذه السنة الصدارة فى برامجنا يتضمن – مع الاعتزاز بذلك التراث – مراعاة المعاصرة فى فهمه وفى أساليب التحقيق والاحياء .ومثل ذلك يمكن ان يقال عن اهتمامنا باللغة العربية . فانا لن نعيد الى لغتنا منزلة تساوى التى كانت لها فى ازهى عصور تاريخنا ان لم نراع حاجات أمتنا فى عصرنا هذا بالذات . فالكنوز العلمية النظرية والتطبيقية وروائع الادب والفن التى يجب علينا اخراجها وتعهدها بالصقل والتوضيح يتكون منها رصيد يجب أن نوظفه فى حياتنا الحاضرة بما اشتملت عليه من مشاكل هذا العصر وهمومه – ولا سبيل الى ذلك الا بنظرة

شاملة للثقافة لا تفصل بين العلم والادب والفن . وهى النظرة التى كان لها بعض الاثر فى تركيب المجلس العلمي لمؤسستنا وبرامج اعمالها . ونؤمل ان يبرز ذلك الاثر أكثر فأكثر فى السنوات المقبلة . اننا نؤمل لهذا المجلس ان يكون ملتقى للكفاءات فى أعلى مستوياتهـا وللتجـارب فى اخصب وجوههـا لتستفيد من ذلك ثقافتنا التونسية والثقافة العربية . ومـا الاولى الا فـرع للثانية ـ وفى ذلك فائدة للانسانية جمعاء ـ اذ تقدم أمة من الامم يساهم حتما فى تقدم الانسان أيا كان .

ان التقدم العلمى المنقطع النظير الذى عرفته الانسانية فى هـذا القـرن العشرين يفرض علينا ان نقبل على هذه العلوم الحديثة وان نشارك فى رقيها بالاستكشاف والابتكار دون تأخر أو احجام . ان العالم الذى نعيش فيه يعرض علينا فى جميع الميادين وسائل للانتاج وللابداع لم يكن اجدادنا يتصورونها . وفى نفس الوقت وعلى قدر هذه المكتشفات والوسائل الحديثة للانتاج عظمت الويلات التى تهدد البشرية من كل جانب ـ فاصبح من أوكد ما هو أكيد ان تكون مواقفنا الفكرية والخلقية اى قيمنا ومبادئنا الحضـرية ـ ومـن ضمنهـا مستوانا الفكرى ـ متناسبا مع عمق هذه الثورة العلمية ومع خطورة نتائجها. فاخطار عالمنا الحديث لا تقاوم بالانزواء والانكماش والجهل او التجـاهل بـل يجب ان نتصدى لها بكامل الوعى وبالغ الادراك وواسع العلم وتحمل اقصى ما نطيق من المسؤولية . ولا شك ان العلم الحديث بسعـة خضمـه وجديـد أساليبه يدعو الى التعاون والى تضافر الجهود وتكامل التجـارب ويتطلب فى نفس الوقت ضمان الحرية التامة لجميع رجال الفكر حتى يكون اسهـامهم فى الابتكار والابداع انشط وانجع ما يمكن ان يكون . فبالتعاون مع المؤسسات الثقافية الوطنية والدولية ومع رجال الفكر فى الاقطار الشقيقة والصديقة من عالمنا الحاضر نطمح الى ابراز ثقافة عربية اسـلامية تفي بواجبـات الاصـالة ومقتضيات المعاصرة فى نفس الوقت ، وتسهم فى تقدم الانسانية بما يتناسب والدور الذى كان لها فى ماضيها المجيد . هذا هو الهدف الذى ينبغى ان ترمى اليه مؤسساتنا . وأملنا وطيد ـ أيها العلماء الأماثل ـ ان تعينونا على بلوغه. واليكم نجدد شكرنا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

د. أحمد عبد السلام

أوراق قديمة

الجنية

شعر: خليفة محمد التليسي

لَنْ أذْرفَ الدّمعَ حزْنا في مغانيها … أوْ أرْفعَ الصّوتَ شكوى من تجنّيها
ولنْ ترَاني نجوم الليل ألعنهـا … إنّ اللعينَ فؤادٌ لا يناغيهَا
بل سوفَ أهتف باسم طالما طربت … لهُ الجوانحُ فانسابتْ أغانيهَا
وكيفَ أشكو جموحا في خلائقها ؟ … يطوى بها كلّ أفق منْ أمانيها
فغايةُ السابق المِقْدَام أمْنيَــةٌ … ينَالهَا ثمّ يأتِي مَا ينسّيهَا
وكم تمنت وكم طارت وكم جمحت ! … وكم تولتْ بلا إلف يحاذيهَا !
تجرّ أذْيَالهَا حَسْرَى مولّهةً … وَالليْلُ يرْقبهَا وَالبَدْرُ يرْثِيهَا
وَحِيدَةً في درُوبِ الحبّ حائرةً … كأنمَا فَقَدَتْ أغلى غوَالِيهَا
فَرَاشَةُ الحَقْل كم طافت بناظرة ! … من الزهور وظل الشوق يضنيهـا
وَذئْبةُ الغَابِ كم أوْدت بشاردة ! … وَالجوعُ يَنْشُرُهَا حِينا ويَطويها
وَلبْوَةٌ تَحرقُ الأدغالَ شَهوتُها … فَلاَ الضّرَاغِمُ وَالاشْبَالُ تُطفيهَا
وَطفلةٌ تملأُ الآفَاقَ غِبْطتُهَا … لاَ تُضمرُ الشّرّ لكنّ الأذى فيها
تَلْهُو وَتَلْهُو ولا تنفكُّ عابثةً … بكلّ ما يحفظ الدّنيا ويُبْقِيهَا
كأنها ربّةٌ في المَسْرج راقِصَةٌ … قَدْ كلّلَتْ بِزُهُور مِنَ رَوَابيهَا
سَكرَى بآمَالِها نَشْوَى بفرحتِها … يُعابِثُ الرّيحُ بَادِيهَا وَخَافِيها
تَسَرْبَلَتْ بِشَفيفٍ مِن غلائلها … ففَاقَ كاسِيهَا في السحر عاريها
بَرَاءةُ الطفل فى العَيْنَيْن باديةٌ … وفتحةُ الثوبِ عندَ النهدِ تَنْفِيهَا

ولستَ أدري هل الفردوس موطنها ... قبل المَجيء إلى دنيَا محببِّهَا
أمْ كانَ في سَقر مَرْعى نوازعُهَا ... ورَبَةُ الجن كانت مِن حَوَاريهَا
قَدْ أفلَتَتْ ذَاتَ يَوْم من جهنمها ... وَجاءت الأرض كي تشقى وتُشقيها

* * *

لاَ تَقْرَبُوها ولاَ تأسوا لعَاصِفَةٍ ... ألْوَتْ بِها فَترَامَتْ فِي مَهَاويها
فَتِلكَ جِنيّةٌ تجري بِرَغْبَتِهَا ... هُوج الرياح فتَغْلو في مَرَامِيهَا
مَزَالقُ الخَطر الملعُون نزوتُهَا ... وَلاَفِحُ اللهبِ المَسْعُور يُحْيِيهَا
كمُهرةٍ فِي فجَاج الأرْض سابحة ... تُسابِقُ الريحَ لا تهْو لِرَاعِيهَا
تَبْدُو لرَاكِبِها سَمْحَاءَ وادعة ... رَهِيفَةً قدْ تُواتي مَنْ يواتِبهَا
حتى إذَا مَا تراءتْ ثم مَهْلكَةٌ ... ألقتْ بِهِ وتَعالتْ فَوْقَهُ تِيهَا
وَقَهقَهتْ كإلهِ الجنّ شَامِتَةً ... بِمَا يُلاقِي وغصّات يُعَانِيهَا
وحمحمت يقدحُ النيران حافِرُها ... نَحْوَ الجَديد الذي بِالوَهم يثريها
فَلاَ الضّرَاعةُ تثني مِنْ شَكيمتِهَا ... ولا الشرَاسَةُ بِالإذْعَان تُغريهَا
عَنِيفَةٌ هي حقاً في صبَابَتِهَا ... تَوَدّ لَوْ مُهجُ العشاق تَحْوِيهَا
لَوْ استطاعتْ لما أبقتْ لغَانِيَةٍ ... إلفا يُغني ولا صبا يُنَاجِيهَا
تَمْضِي مَعَ العِشْق لا تحنو لباكية ... مِنَ العيون ولا الآلام تُشْجِيهَا
هي الطبيعَةُ تجري في أعِنّتِهَا ... لا العَقْلُ يعقِلُها لاَ الفِكرُ يثنيها
هي الزّوَابِعُ إمّا ثَارَ ثَائِرُها ... وهي النسيمُ إذَا رَقّتْ حَوَاشِيها
بُرْكانُها يتَلظى تحتَ خَامِدَةَ ... وثَوْرَةُ الجنّ أصلٌ فِي مَبَادِيهَا
هُوج الرّياح تَلقّتْ عنها غَضْبَتَها ... وَأسْلَمتْهَا إلى الأمْوَاج تُلْقِيها
وَالمَوْجُ يَعْشَقُها رُوحا تجَسّده ... وفي التموّج أسرَارُ الهوَى فيهَا
كذَاكَ أخلاقُها سِلمٌ ومعْرَكةٌ ... وجَنّةٌ وَجَحِيمٌ فِي تَدَانِيهَا
وَللمَشَاعِرِ فِي أكْوَانِهَا نَغَمٌ ... يَدْنُو بأنفُسِنَا حِينا وَيُقْصِيها

بَعْلو كطاغيةِ الأمواج صَاخِبةُ   يطفو المدى ثم يغفو عند شاطيها

* * *

إلاهَةُ الفنّ أوْصَتْها بِشَاعِرها   أن لا تَزَال بِهِ النيرَان تذْكيها
فإن خبت أوقدتْ بالهجر جذوتها   وإن تعالتْ فبالإقبال تُطفيهَـــــا
وعندَ غَضْبَتِهَا شعر يُصَالحُهَا   وعِنْدَ رَجْعَتِها شعرٌ يُناغيهَا
ومغنم الفن من أوجاع فُرقتهـــا   كمغنم الفنّ من نُعمى تلاقيها
وَهَكَذَا لا يزَالُ الدهرُ يُنْشِدُهَا   حُلوَ القَصَائد تنديدًا وتَنْويها
حتّى يُخَلّدَ بالأشعار صُورتهَا   وَشُعلَةُ الفنّ لاَ تَخْبُو بناديها
باقات شعري من أزهار روضتها   كلّ القصائد فيض من معانيهَـــا
لَوْلاَ هَوَاهَا لمَا أبْدَعْتُ قافيَـةً   وَلاَ نظمتُ من الأشعار سَاميهَا
وَلاَ رَكبتُ بُحور الشعر عاصيَـةً   كمثل عصيانها شَتّى دَوَاهِيهَا
فكيْفَ ألْعَنُها ؟ أم كيف أجحدها   ما كان منْ وَحيها أو مِنْ أغَانيهَا؟
إنّي أحددُ شيئا منْ ملاَمحِهَـا   وَلَسْتُ أرْسمُ إلا بعض ما فيهَــا
وَكيفَ أرْسُمُهَا رسما يحققها؟   وهي الطبيعة في أحلى مَجَاليهَا.

خليفه محمد التليسي

ننشـر فى العـدد القـادم

① **فـى الدفـاع عـن اللغـة العـربية** – 3 –

الجزء الاخير من دراسة : **محمـد أنـور بـوسنينه**

② **المفتعـل بيـن الـدين والتـاريخ** – 2 –

الجزء الاخير من دراسة : **فـوزى هـلال**

إنما يأتي الطبيب المرضى

بقلم : د. جعفر ماجد

يروى عن المسيح عليه السلام أنهم رأوه خارجا من عند مومس فقالوا : يا روح الله ، ما تصنع عند هذه ؟ إنما يأتي الطبيب المرضى .

لم يعرف عن المسيح أنه تعلم الطب ولا عرف صناعة العقاقير ولكنه تطوع لعلاج النفوس المرضى بالرفق والمحبة . والطبيب الحق ليس نقيض عزرائيل لأن الموت سبيل لا بد منه ولكنه ارادة البقاء في وجه الفناء وتوق الانسان الى التشبث بثدي الحياة الغادرة العقوق . وما سمعنا أن طبيبا عالج الانسان من جرثومة الفناء ولكن مجد الطبيب في انتصاره على الالم واليأس أو في جهاده من أجل هذا النصر — وقد كان الطب منذ دبت الحياة على سطح الارض مهنة شاقة لان الناس كلهم مرضى وأمراضهم منها الظاهر ومنها المقدر كحركات الاعراب في الصحيح السالم والمعتل الناقص غير أن أطباء هذا العصر نسوا الحروف الاولى للصنعة فلم يفعلوا مثل ابن الجزار القيرواني — ونحن نحتفل بذكراه — الذي انتصب في بيته يشخص الداء ويعطي الدواء دون أن يمد يده للقبض أو يواجه الناس بالرفض ، ولا كالمسيح الذي اقتحم بيت المومس وهي على ما نعلم لا تعلم ، بل طلبوا من المقعد أن يمشي ومن الأعمى أن يرى ومن الأصم أن يسمع والأبكم أن يتكلم قبل أن يعالجوه حتى يعالجوه .

وقد يكون شر الاطباء أولئك الذين نصبوا نفوسهم لعلاج الشعوب وأحضروا وصفة الدواء قبل دخولهم على المريض حتى اذا تم الفحص أصروا على أن يجدوا في المريض ما أحبوا أن يكون ، وكثيرا ما تكشف الفحوص التاريخية وبصورة غير متوقعة أن أولئك الاطباء قد حملوا الى شعوب سليمة من المرض آفات يعسر علاجها أخذتها بالعدوى حين مستها جلودهم وفي

حين تكون هذه الشعوب تتصارع مع أخبث الجراثيم يكون أطباؤها المزعومون يمنعون عنها البحث عن طبيب مساعد أو علاج سريع ، فلا يهدأ لهم بال حتى يكون الهلاك عاما تاما وفى لحظات الحشرجة الاخيرة يرفع الاطباء المرضى رايات البطولة والاستشهاد ويموتون .. يموتون مثل الجراد .

لكن الشعوب التى تعيش بعدهم ـ لان الشعوب لا تموت ـ تبقى حاملة لجراحات الانانية والديكتاتورية والقهر والظلم وانتهاز الفرص ، وكثيرا ما تزهد فى الطبيب وتطلب من الله العافية ، ولكنها لا تعدم أطباء آخرين يقتحمون عليها حياتها ليعالجوها رغم أنفها ويحملوا لها دفعة أخرى من الجراثيم .. ولسان حالهم يردد قول المسيح : إنما يأتى الطبيب المرضى ... وما هم بالمسيح !

ألا ترى أن الانبياء هم أفضل الاطباء ؟

والانبياء مضى زمان ظهورهم ...

د. جعفر ماجد

الطائر الورقيّ

شعر: نور الدين صمود

طِفْلٌ صَغِيرٌ يَرْسُمُ الأطيَارَ مِنْ وَحْيِ الخيَال
يَسْعَى بِهِ الوَهْمُ الرّحِيبُ إلى عَوَالِم مُتْرعاتٍ بالجمَال
يَمْضِي إلى دُنْيَا المُحَال ...
الطائرُ الوَرَقِيُّ يَسْبَحُ في فضَاءِ الصّفْحَةِ البيضَاءِ مَفْتوحَ الجنَاحْ
وَالطفْلُ يَرْكبُ مَتْنَ طائِرِهِ الخُرَافِيِّ البَدِيعْ
يَرْمِي بِهِ الحُلمُ الجَمِيلُ إلى البَعِيدْ
يَجْتَازُ آفَاق السّمَاء
يَتَلَقّفُ النجمَ الوَضِيء
يَلْهُو بآلافِ الكوَاكِبِ في الفضاء كحفنَةٍ من جَوْهَر
تُلقِي أشِعّتَهَا خُيُوطا مِنْ لجَيْن ذائِبٍ
تَمْحُو بهَا حِبْرَ الظلام
فتَرفّ في الآفاق أجنِحَةُ الصباحْ
والطفلُ يَفْتَحُ عَيْنَهُ في الصبح لكنْ: أينَ أسْرَابُ النجُومْ ؟
أينَ اللجَيْنُ الذّائبُ اللماعُ في الليل البَهِيم ؟
أينَ الجوَاهرُ واللآلِئُ والذّهَبْ ؟
هَلْ حَجَّبَتْهَا عن عُيُون الكون أرديَةُ السّحُبِ ؟
الطفْلُ يُمْسِكُ ريشَةً وَيَخُطُّ فوقَ الغيم بَرْقا لامِعا ...
مِثْلَ السيَاطْ
الطفلُ يرْسمُ وَمْضَةً فى إثر ومضهْ

فَيُمَـزّقُ الغَيْـمَ الـدّجُـوجِيَّ الكَئِيبْ
وَيَـرُوح يرسمُ قرص شمس سَـاطِع
يَمْحُـو السّحَـابْ
وَيُـزِيحُ أَشْبَاحَ الظـلام
ويظـلّ فِي الأُفْقِ السحِيـق مُحَـدّقا
مُتَسَـائِـلاً : أَيْنَ النّجُـوم ؟
أَيـنَ اخْـتَـفَـتْ قِـطَـعُ اللجَيْـنْ ؟
مِنْ بعدِ ما ذَهَبَ الظـلامُ وَمُـزّقَـتْ كُـتَـلُ السّحُـبْ .

د. نور الدين صمود

تنشــر فــي الاعــداد القــادمة

- **اللغــة بين معــرفة الــواقع وواقــع المعــرفة**
  دراســة : د. نور الــدين كريــديس
- **زمــن الخــوف الضــاحك**
  قصــة : حيــاة بــن الشيــخ
- **مــن فلسطيــن وأرض كنعــان الى قرطــاج**
  دراســة : د. محمــد فنطــر

« لعنة سبينوزا »
بقلم : محمّد مصمولي

مهداة إلى روجي غارودي

— ١ —

ـ لأنك لم تكن سوى « سبينوزا » الذى أردت أن تكون ..

ـ لأنك لم تكن « نوتة » موسيقية فى همهمات صخبهم الاسرائيلي ..

ـ لأنك آمنت بالعقل وعشت للفلسفة ..

فها قومك ، بنو اسرائيل ، بقرار « ملائكتهم » وحكم قديسيهم يحرمونك ويلعنونك ويصبون جام نقمتهم عليك ..

اصغ ، يا سبينوزا بهدوئك المعتاد ، وبلطفك المعهود ، الى أبناء جلدتك وهم يحاكمونك بكتبهم ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها . راجين من ربهم طردك دون سابق اعلان من غفرانه السماوى ..

انظر اليهم ، يا عزيزى ، وهم يحاصرون نظراتك بلهاثهم ، و « يصادرون » نبضات قلبك بأذرعتهم وأصابع اتهامهم .. وقديسيهم ورؤساء مجلسهم الملي يقولون :

ـ « ليكن مغضوبا عليه وملعونا ، نهارا وليلا ، فى نومه وصحوه ، ملعونا فى ذهابه وايابه ، وخروجه ودخوله .. » .

ألا ما أجمل كبريائك أيها الفيلسوف ! وأنت تتحداهم بصمتك الكبير .. ورجال شريعتهم يصرخون قائلين :

ـ « نرجو من الرب أن ينزل عليه غضبه وسخطه دائما ، ويحمله جميع اللعنات المدونة فى سفر الشريعة . ونسال الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذكم . وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة ، أو يتصل به كتابة ، وأن لا يتقدم له أحد بمساعدة .. أو بمعروف ، وأن لا يعيش أحد معه تحت سقف واحد ، وأن لا يقترب أحد منه على مسافة أربعة أذرع ، وأن لا يقرأ أحد شيئا جرى به قلمه .. أو أملاه لسانه » .

* * *

ـ ② ـ

ثم ها أنت تخرج مطرودا من هؤلاء ، ومن الأب والأخت ، ومن الاصدقاء والاحباب ، وحتى عندما ينقض عليك وغد متعصب ويحاول اثبات تدينه بطعنك فى عنقك من خلف ، فأنت تواصل الطريق الى الفلسفة ، لا تاوي على شيء ، ثم ـ وبعد رحيلك المبكر ـ وبدون رغبة منك فى فرض مذهب .. أو تيار فلسفي ، تكتشف ـ وأنت حاضر فى الغياب ـ :

ـ أن قرار ملائكتهم فى لعنتك.. لم يمنع «نوفاليس» (الشاعر الكاتوليكى) من أن يطلق عليك اسم (الله مسكر الناس) ..

ـ وأن لعنة قديسيهم .. لم تمنع « غوته » شاعر الالمان من التأثر بكتابك « الأخلاق » ، ومن اعتباره « الفلسفة التى تاقت اليها روحه » .

ـ وأن كتبهم المقدسة ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموسا المكتوبة بها .. لم تمنع « شوبنهاور » ، « نيتشة » ، و « برغسون » من الافتتان بفكرك العظيم ..

ـ وأن جميع اللعنات المدونة فى سفر شريعتهم .. لم تمنع فلسفتك وفلسفة « كانط » (عن المعرفة والمنطق) من التمهيد للثلاثى الفلسفى « فخته » و « شلنغ » و « هيغل » .. ولبلورة مقولة « وحدة الوجود » ..

ـ وأن طرد أبيك لك ، واحتيال أختك على حقك فى الميراث .. لم يمنعا .. انكلترا أثناء الثورة .. من الاهتداء بهدي فلسفتك .. التى تأثر بها «كوليرج»، و « ويردسورث » .. و « شيلي » وغيرهم ..

ـ وأن طعنة ذلك الوغد اليهودى (من بني قومك) فى عنقك .. لم تمنع « لاهاي » من اقامة تمثال لك (بتبرعات من العديد من مثقفى العالم) ، وذلك.. فى القرن الثانى بعد رحيلك عن هذا العالم ..

★ ★ ★

— ③ —

ها قد مر قرن كامل على ازاحة الستار على تمثالك الجميل « بلاهـاي » .. يـا « سبينوزا » العظيم ..

ولعلك تذكر .. ما كنت قد قلته .. لذلك السيـد من مجلس الشـورى ، الذى زارك وعاب عليك .. اهمالك لهندامك ، وعدم اهتمامك بملابسك ..

هـل تذكـر ؟

إنك قد قلت له وهو يعرض عليك ثوبا آخر :

ـ « **بأن الثوب الجميل لا يزيدك فى قدر الرجال** ».. وإنك أضفت قائلا له :

ـ « **منغير المعقول لف الاشياء الزهيدة بغلاف ثمين** » .

★ ★ ★

— ④ —

والآن ، يا سبينوزا الخالد ، وبنو اسرائيل قد تحولوا الى « وغد » بصيغة الجمع (من طراز ذلك الوغد الذى سفك دمك) ، ألم يحن الوقت لكى يضيفوا الى كتبهم المقدسة ذات الستمئة والثلاثة عشر ناموسا ، الكلمة التى القاها .. « أرنيست رينان » فى عام 1882 ، لدى ازاحة الستار عن تمثالك الجميـل .. حيث قال :

ـ « **ويل لمن يمر أمام هذا التمثال ، ويوجه إهانة أو لعنة لهـذا السيـد والفيلسوف المفكر ، لانه سيعاقب بخسته كما تعاقب جميع النفوس الخسيسة العاجزة عن تصور الله** » .

م. م.

من الأدب الياباني

عمل غريب

قصة : أووي كانزابورو

تعريب : مصطفى الفارسي

ولد أووي كانزابورو(*)سنة1935ودرس الآداب الفرنسية بجامعة طوكيو موليا اهتماما خاصا لجان بول سارتر وقد تأثر فعلا بسارتر وبيار قاسقار ويظهر ذلك في قصته الاولى بعنوان « كيميو ناشيقوتو » (عمل غريب) التي أحرز من أجلها على جائزة مجلة جامعة طوكيو بينما كان طالبا بها.وتعود شهرته الى تلك الفترة اذ نشرت له في نفس السنة قصص قصيرة عديدة منها « الميت الوقح » و « رجلا الآخر » كما نشرت له رواية قصصية سنة 1957 بعنوان « الفسخ » أحرز بها على جائزة « آكوتاقا » المحترمة جدا في اليابان . وبعد سنوات عديدة شرع في كتابة روايات قصصية طويلة جدا بالنسبة الى سابقاتها ومنها « ساستيكي نينغن » (انسانية شبقية) و (مغامرة حياة خاصة) و (الصرخة الساكنة) و (قضية شخصية جدا) .

ويعرض أووي كانزابورو في روايته لقضايا شائكة ومواضيع يهولها الى أقصى الحدود ومنها مسائل الجنس والعنف اذ يتناولها وهي في ذروة الجنون ليعبر بذلك عن الاختلال وعن الامراض والعاهات التي بلي بها الكائن الحي في المجتمع الجديد .

وأووي كانزابورو روائي يشاطر آراء وهموم الكتاب الامريكيين والفرنسيين الذين هم من جيله وهو في نفس الوقت يعتبر أنه الوريث الشرعي الاول للتقاليد الادبية اليابانية الخاصة بفترة ما بعد الحرب . ولا يقتصر هذا الولاء للتقاليد عند الكاتب على الناحية التقنية الصرف بل أن ذلك

(*) ترجمت القصة والتعريف بالكاتب عن عمل قام به كوريهارا يوكيو .

يتمثل أيضا وبالخصوص فى مساندته الدائمة للمبادىء الفلسفية والسياسية الرئيسية التى تركزت عليها ديمقراطيات ما بعد الحرب .

وبوصفه كاتبا فهو فى موقف دائم من القضايا التى يواجهها اليابان المعاصر لترسيخ الديمقراطية فى البلاد وفى نفس الوقت يساهم الكاتب فى نشاطات العديد من الفرق الرافضة المشاكسة للنظام القائم . وهو أيضا ومنذ سنوات عضو قيادى ناشط بالفرع اليابانى لاتحاد كتاب آسيا وافريقيا . ترجمت آثاره الى كثير من اللغات ولها قراؤها وانصارها فى أوربا والولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتى .

« عمل غريب »

اذا سنحت لك الفرصة لتعبر الشارع الكبير مرورا بالمستشفى الجامعى فى اتجاه البرج الشامخ المتوج بالساعة الدقاقة فانك ستنتهى الى مفترق طرقات يفتح أمامك فجأة وبصفة غير منتظرة مجموعة من الرؤى والمشاهد . هناك ، خلف أفنان الشجيرات الرقيقة الوادعة على مقربة من الدربزين الفولاذى نبتت عمارات هى بصدد البناء تصاعد الى عنان السماء . سيمكنك أن تسمع كثيرا من نباح الكلاب وكلما تبدل اتجاه الريح وتغيرت ايقاعاتها يتخذ ذاك النباح رنينا حادا كما لو كان يتجه بصلاة الى السماء ويود ان يرجع الصدى فى الافق البعيد بامعان والحاح . فعندما أتمشى مهلا فى ذلك الشارع قاصدا الى الجامعة الوطنية أو راجعا ادراجى منها يحدث عادة أن أولي اذنا صاغية فى الحين الذى أبلغ فيه ذلك المفترق . وكأن شعورا من الاعماق يدعونى الى الاستماع الى نباح الكلاب . لكن يحدث احيانا أن لا أسمع أى شىء . والواقع انى لا أشعر باهتام خاص يشدنى الى مجموعة من كلاب نابحة . لكن عندما عرض علي فى موفى شهر مارس أن أعمل نصف وقت وكان العرض مثبتا على لوح المدرسة أحاطت بى أصوات تلك الكلاب والتصقت بجسدى كالثوب الندي وبدأت تنفذ الى حياتى .

مكتب الاستعلامات فى النزل يدعى أن لا علم له بالمعلقة ولا أى دخل فى العرض الذى وصلنى . لذلك ألححت وأعدت طلبى لدى أحد الحراس ثم مشيت فى اتجاه مؤخرة المستشفى حيث قبعت صناديق خشبية أعدت للخزن . وأمام

احد هذه المخازن وقفت طالبة يرافقها طالب يدرس بجامعة حرة وكانا يستمعان الى تفاسير يلقيها رجل فى وسط العمر يبدو عليه الهزال وتوعك الحال . وتغطى ساقيه سوقاءان من الجلد . وقفت وراء طالب الجامعة الحـرة ، واذا بالرجـل يرمينى من تحت حاجبيه العريضين بنظرة غاضبة ثم يميل رأسه بحركة سريعة قبل أن يتابع تفاسيره .

قال : « سنقتل خميسين كلبا » ثم أردف بعد صمت قصيـر : « والرجـل المكلف بقتل هذه الكلاب هو الآن هناك بصدد الاستعداد . نحن فى حاجة اليها لمدة ثلاثة أيام ... بدءا من الغد » .

« رجل انجليزى ناهض مشروع ارسال مـائة وخمسين كلبـا للمستشفى قصد إجراء التجارب على جثثهـا ، والمستشفى ليست لـه الميـزانية الكـافية لصرفها على إطعام هذا العدد من الكلاب . لذلك السبب قررنا أن نجلبها دفعة واحدة . من الممكن أن نعرف كل شيء عن التشريح ... وعن عـادات الكـلاب وغير ذلك من الامور ... » .

وبعد أن أرشدنا الى الاثواب التى يجدر بنا أن نرتديها وأعلمنا بمواقيت العمل بتفصيل دخل الرجل الى المستشفى واتجهنا نحـن الثـلاثة الى بـاب الجامعة الخلفى .

سألت الفتاة : « هل المرتب طيب ؟ » .

فأجاب طالب الجامعة الحرة فى شكل سؤال : « هل أنت بصدد التفكيـر فى قبول العمل أو رفضه ؟ » قال ذلك بلهجة من فـوجىء بسـؤال لم يكـن ينتظـره .

قلت : « أنا فعلا بصدد التفكير فى ذلك . لقد عملت بقسـم علـم الحيـاة ومارست العمل بتفوق ومهارة. لذلك تعودت على مشاهدة الحيوانات الميتة ».

فقال الطالب : « اذن أنا أيضا سأقبل هذا العمل » .

وتوقفت عند مفترق الطرقات لكن لم استمع الى نباح الكلاب، كانت نسمات الليل تهب على اغصان الاشجار المنتصبة على حافتى الطريق .. وقد تعرت الآن من أوراقها . فحثثت فى السير والتحقت بالآخرين . حملق الطالب الآتى من الجامعة الحرة فى وجهى وكان فى عينيه سؤال .

قلت : « أنا أيضا سأقبل العمل هنا » . وفي الغد الباكر ارتديت بنطلوني الاخضر وخرجت . الرجل قاتل الكلاب في الثلاثين من عمره على ما يظهر . ذو قامة قصيرة لكنه بدين . قدت احد الكلاب الى مكان مسيج وضع تلقاء المخزن الخشبي . فقتله قاتل الكلاب وأمسك طالب الجامعة الحرة بالجثة وقد نزع منها جلدها وأعطاها الى شخص آخر . الطالبة الشابة تتولى العناية بالجلود . واستمر العمل هكذا دواليك وقد قتلنا في تلك الصبيحة خمسة عشر كلبا . بدأت آلف هذا العمل ... أتعود عليه .

توضع الكلاب في مكان مفتوح على السماء يحوطه جدار قصير من الاسمنت المقوى . ويفصل المتر بالمتر أوتاد مسمرة بالارض يربط بكل واحد منها كلب . الكلاب هادئة . فقدت حدسها الطبيعي الذي يدفعها الى العداء اثناء السنة التي قضتها هنا مشدودة الى الاوتاد . لم تعد تعيرني أي اهتمام أو تنبح عندما أمر من وراء الجدار . والحال أن أحد موظفي المستشفى ادعى أن الكلاب كانت تنبح دون أي سبب واضح ولا أي مبرر وكان ارجاعها الى الهدوء والطمأنينة يتطلب اكثر من ساعتين . وها هي ساكنة لا تسمع اي نباح حتى ولو دخل مربضها رجل غريب عنها . لم تنبح الساعة عندما دخلت . اكتفت بالقاء نظرات عجلى في اتجاهي . يا له من شعور غريب ومحير ذاك الذي يتملكك عندما تطفق مائة وخمسون نفرا من الكلاب تحملق فيك بعيون ثابتة ونظرات باهتة . يخيل إلي أن ثلاثمائة صورة صغيرة لشخصي تنعكس في ثلاثمائة عين سوداء نحاسية . الموقف الذي أجدني فيه يرعد فرائصي من رأسي الى قدمي .

الكلاب التي تأتينا تمثل مزيجا عجيبا . تجد من بينها مبدئيا كل الانواع والفصائل والسلالات . وهي فوق ذلك أو بالرغم عن ذلك متشابهة ولا يختلف لواحد منها عن الآخر . هناك كبير الحجم وهناك الصغير وهناك مجموعة لا يستهان بها من الكلاب المصفرة اللون ذات القامات المتوسطة .

لكن كل الكلاب سواء . وإني لأتساءل عن السبب الذي يجعل الواحد منها يشبه الآخر الى هذا الحد . فهي كلها دويبات جميلة وحزينة . ربما لانها نحيلة هيفاء أو لربما لانها موثوقة بهذه الاعمدة والاوتاد وتبدو وكأنها سريعة الغضب سوارة . ذاك هو السبب دون شك . لو كنا مكانها لاتخذنا نفس الموقف سورة وتهجما . فقدان الشجاعة بصورة نهائية والعنان واللامبالاة وهذا الشبه

الغريب بين الواحد والآخر وانسحاق الفردية . ألم تكن تلك هى الاسباب التى جعلت منا حيوانات سليخة باردة تافهة نحن الطلاب اليابانيين ؟ لكن دعنا من السياسة فهى لا تهمنى كثيرا . فانا اما أن أكون شابا صغيرا جدا أو شيخا مسنا جدا بحيث لا يمكننى أن يهفو قلبى أو يهتز شعورى الى أى شىء بما فى ذلك أمور السياسة . أنا الآن أناهز العشرين من عمرى وذاك سن غريب فى واقع الامر. بالاضافة الى ذلك فنا أشعر دائما بالتعب وأفقد بسرعة عجيبة التعلق بأشياء كثيرة . ها أنذا الآن أفقد الاهتمام الذى كنت أوليه للكلاب فيما مضى .

لكن عندما اكتشفت كلبا هو خليط من « اللولو » و « الحارس » الالمانى لم أجد بدا من التعجب من أمره...فانا أشعر أمامه بحيرة فائقة واستغرب شكله المتميز اذ له رأس « الحارس » لكن وبره متعجرف متشوك من اثر نسمة عابرة دافئة . طفقت أضحك . ثم قلت فى اتجاه طالب الجامعة الحرة : ـ « انظر الى هذا . فانكواجدفيه اللولو والحارس فى نفس الوقت ، كأن الواحد منهما ثبت ببرغي الى الآخر . أليس ذلك مضحكا ؟ » .

قض الطالب شفتيه امتعاضا وأدار رأسه معرضا عن المشهد . فأخذت الكلب الآخر من عنانه وهو من الحجم المتوسط وقدته الى الخارج . حيث كان ينتظر عند سياج الاوتاد قاتل الكلاب وبيده الهراوة التى سيهوى بها على رأسه . أخفى الرجل الهراوة وراء ظهره بسرعة بينما كنت أمسك بعنان الكلب ثم تقهقر قليلا الى الوراء ليرجع فورا الى مكانه الاول وهو ينزل الدبوس على الدابة نزول الصاعقة . كان المنظر على جانب من الفظاعة حبس أنفاسى للحظة . ثم رأيت القاتل ينزع من حزامه سكينا حادة عريضة الشفرة ويهوى بها على عنق الكلب فيبته من أصله . ويترك دم الكلب الفوار يتجمع فى سطل ويشرع بعد ذلك فى نزع جلد الحيوان بمهارة فائقة وسرعة عجيبة . شاهدت ذلك عن كثب وعندما نفذت رائحة الدم الدافئة الى أنفي ارتعدت فرائصى وشعور غريب لست أدري تحديده بالضبط يهزنى هزا عنيفا .

كان المنظر مقذعا دنيئا والحال أني لا أعتقد أنه لزام علينا أن نتوجه باللوم الى ذلك الرجل أو أن نعاتبه مجرد عتاب على تلك المهارة السافلة التى تجعله أمام عينى يتصرف هكذا فى حشاشة كلب . فالدنس هنا يتخذ وجه الفعل . وهى دناءة متأصلة الجور فى حياة الانسان الشهوانية الحسية المحض . ولقد

تعودت الآن على عدم الانزعاج من ذلك بالشدة التى كنت انزعج منها على الاقل. وانى لم أعد أشعر قطعا بالوهن الماحق الذى لا يطاق وحتى دناءة قاتل الكلاب لم تعد تؤذينى اكثر من اللزوم ... مما أتحمل .

فالغضب الذى قد يركبنى مما أرى كان باستطاعتى أن أهدئ من سورته. فأنا لم يكن بوسعى أن أشارك ا جانب أصحابى فى الحركة الطلابية . وسبب ذلك مرجعه أساسا الى أنى لم أكن أتوق قطعا الى ممارسة السياسة . لكن نهاية الامر هو أنى لست قادرا على أن أنمي فى ذاتى الشعور بالغضب . يحدث أن أحاول أحيانا أن أربى ذلك الشعور وأن أتولى رعايته والحدب عليه فى داخلى لكن لا يلبث أن يصيبنى من ذلك تعب شديد .

وضعت هيكل الكلب وقد انتزع من الجثة جلدها الابيض الناصع فاذا هى هامدة منصاعة ثمسحبته ورائى منرجليه الخلفيتين الى خارج السياج الوتدي.

كان الدفء يتضوع من الكلب وشعرت وأنا أمسك بقبضتى لحمه اللزج ان هناك فرقا كبيرا بين ما فى يدى وبين الطاقة التى تحفز السباح وهو يثبت رجليه على سطح المغطس الخشبى قبل قفزته فى الماء .

طالب الجامعة الحرة كان ينتظرنى وراء السياج . تسلم الجثة من بين يدى وجرها وراءه فى حذر عسى أن لا تمس جسده من قريب أو بعيد . وأخذت أنا العنان ورجعت ادراجى ابحث عن كلب آخر .

وكان قاتل الكلاب كلما هشم بهراوته رؤوس خمسة كلاب على التوالى ، خرج من الساحة المسيجة لطلب الراحة وهو يجلس على الارض فى صمت ثقيل . وكنت أمشى الى جانبه أو حوله ساعة من الزمن أبادله أثناءها بعض الكلام . وعندما أتوقف عن المشى كان بامكانى أن أشتم رائحة اللحم الطرىء التى علقت به من الكلاب التى قتلها . وهى رائحة طازجة تصاعد منه كالبخار من القدر كريهة تتقزز منها النفس . وفى اعتقادى أن تلك الرائحة تصبح بعد التصاقها بجسده كريهة بالصورة التى لا أعرفها لها عندما تفور من الجثث الهامدة ذاتها . أحاول قدر المستطاع أن أصرف النظر عن الرجل الجالس تلقائى بينما أتابع المشى جيئة وذهابا . وفى ذلك الوقت تكون الطالبة الشابة منشغلة عنا بالجلود تنشرها على الارض الخضرة وراء الساحة المسيجة كالزرابى المزركشة لتغسلها بماء حوض ذى فوارة ، لتزيل عنها بقع الدم التى علقت بها فى عناية ورتابة .

قال قاتل الكلاب : « كثير من الناس نصحونى باستعمال السم... السم... نعم ... لكنى لا استعمل السم . لا أريد أن أجلس القرفصاء بحذاء شبح وأنا احتسى كأسا من الشاى بينما يموت الكلاب على مقربة مني بمفعول السم . فعندما يتعين أن نقتل كلبا فلا يمكن أن نقتلـه فعـلا الا اذا واجهنـا الكلب مواجهة والهراوة فى يدنا . ثم انى استعمل الشفرة العريضة الحادة منذ حداثة سني . أنا مكلف بقتل الكلاب ... تلك هى مهنتى ... لكنى لا أستطيع قتلهم بصورة لا تسمح بالخروج من ذلك الفعل بيدين نظيفتين كما هى الحال عنـد استعمال السم مثلا » .

أجبت : « صحيح ما تقول ... اعتقد ذلك » .

فقال سائلا : « ثم اننا باستعمالنا السم نجر الكلب على أن تتضـوع منـه رائحة كريهة . الا تسلم أنت بضرورة أن يكون للكلب عندما ننزع جلده الحق فى أن تتضوع من جثته رائحة طيبة ؟ » .

ضحكـت .

فأردف قاتل الكلاب : « بلى ... له الحق فى ذلك » .

ثم تابع فى صوت رخيم لا هلس فيه : « لى أسباب تختلف تماما عن تلك التى يتذرع بها الذين يستعملون السم ... أنا أحب الكلاب » .

ورجعت الطالبة الشابة وهى تسحب وراءها جلـدا لا شـك فى أنـه كان مغسولا . كان وجهها متورما تعلوه مسحة اصفرار قد تكـون تسببت فيهـا المجهودات الكبيرة التى بذلتها . فالجلد الملطخ بالدم والمغطى بالشحم هو فى نفس الوقت ثقيل وصلب . فهو كالمعطف المبلل غير مطواع . لذلك ساعدتها على جر الجلد العنيد حتى فوارة الماء . قالت وهى تمشى الى جانبى جارة الجلد : « هذا الرجل ، يتمتع بحس تقليدى متمكن أصيل . هو فخور بقتلها بواسطة شفرة حادة . وذاك لعمرى يضفى معنى على حياته » .

أجبت : « تلك هى ثقافته » .

فعلقت الشابة دونما تأثر : « ثقافة قتلـة الكـلاب ... قـد يكـون نفس المدلـول » .

قلت متسائلا : « هاه ؟ ما ذاك » .

فأجابت الطالبة الشابة موضحة : « مدلول كلمة ثقافة ... فهى فى نهاية الامر حياة الشخص . ألا يرى النقاد أن مهارة صانع البراميل تمثل فى حد ذاتها ثقافة صانع البراميل وبالتالى أن ضربا من الثقافة لا يمكن فصله عن الحياة . بل هو فى حقيقة الامر الثقافة فى معناها الحى والكامل ؟ ذاك شيء بديهى . لكنك عندما تتخذ امثلة حقيقية وحية وتفصل الواحد منها عن الآخر للاستشهاد به عند الاقتضاء لا تلبث أن تلاحظ أن ليس كل شيء جميلا وليس كل شيء نظيفا . فهذه ثقافة قاتل كلاب وتلك ثقافة عاهرة واخرى ثقافة عضو فى مجلس تنفيذى . كل ضروب الثقافة تلك قذرة وشديدة التمكن من النفوس ... كلها سواء ... فظاعة فظاعة » .

قلت : « تلك صورة مغربة فى القتام ... قانطة سوداء » .

فأجابتنى وهى تنظر إلي فى ازدراء : « لا أراها سوداء بالدرجة التى تتصور فاذا كان هناك عمل يتمثل فى غسل جلود الكلاب فأنا لا أحجم عن القيام به كما ترى . ولو كان هناك عقار ضد آفة « بيري بيري » لتناولته .. أتريد أن تغمس أنفك فى مثل هذه الثقافة العفنة ؟ » .

قلت : « لا يتعلق الامر بأنوفنا بل أنه يتجاوزها الى أعناقنا . نحن منغمسون كليا فى أدران الثقافة التقليدية ... أو بالاحرى ... فى بحران ضرب من التقليد الثقافى بحيث لا يمكن رحض اجسادنا لنزع هذه الادران بسهولة ويسر » .

ألقينا بالجلد على بلاط الحوض وكان من الاسمنت المقوى .
يداي الآن تفوحان نتونة لا تطاق .

قالت وهى تقوس ظهرها لتضغط بطرف اصبعها على ربلة ساقها وقد تورمت : « انظر » ثم اردفت لحينها : « هذه الحفرة الضاربة الى البنفسجى ستنتفخ من جديد على ربلتى ولن تعود الربلة أبدا الى سابق عهدها . شيء فظيع . هكذا ... فى كل مرة » .

قلت وأنا أصرف النظر : « صحيح ... فظيع » .

وعادت الطالبة الشابة الى تنظيف الجلد بينما جلست أنا على البلاط الاسمنتى مباشرة موجها انظارى الى الممرضات اللائى كن يلعبن « التنس »

على الارض المخضرة . هناك من بينهن من يخطئن المرمى فيتقهقـرن لمحـاولة جديدة وهن يملأن المكان صخبا وضحكا .

قالت الطالبة الشابة تنتشاني من الغفوة التي شدتني الى البنات للحظات : « عندما أتسلم مرتبي سأذهب لزيارة بركان » ثم اردفت جـذلانة : « لقـد تمكنت من ادخار شيء من المال » .

فسألت متعجبا وفي لهجة الفضول : « وهل تزار البراكين ؟ » فأجابت في ابتسام : « البراكين تسلي النفس » ثم رفعت بصرها الى السمـاء ويداهـا ما زالتا منغمستين في الماء . فاذا تعب شديد يغشي كالستارة عينيها .

سألت : « أنت لا تضحكين الا لماما » .

فأجابت : « كلا ... الناس أمثالي لا يضحكون كثيرا . لكـن عندمـا كنت صغيرة لم أكن أضحك أيضا ... تماما ... كما قلت ... كنت ألجأ الى التفكير في بركان وعندها ... أطفق أضحك ملء شدقي .

جبل شامخ وفي وسط قمته بالضبط ثقب ينفتـح على السمـاء والغيـوم تساقط على الجبل ... أليس كل ذلك مسريا على النفس ؟ » .

ورأيت موجة من الضحك تنغلق فوق رأسها فسألتها :

« اذن ستزورين البركان عندما تتقاضين المرتب ؟ » .

فأجابت بحزم : « نعم سأذهب حالا . وعندما أتنزه قرب البركان ... اعتقد أني سأموت من فرط الضحك » .

كنت في الاثناء قد استلقيت على ظهري وثبت عيني في أوج السماء . فعلت ذلك تلقائيا عن غير قصد . كانت السحب تلمع كالاسمـاك وكانت الشمس براقة تتلألأ . وضعت يدا على وجهي أقي بها عيني فاذا هي تفوح برائحة الدم. يخيل إلي أن أجزاء جسدي جميعها أنقعت برائحة الكلاب ، تشربت بهـا الى حد لا يطاق . فاليد التي قتلت أربعة وعشرين كلبا هي الآن غير اليد التي لم تتعود سوى على حك آذان الكلاب .

قلت : « اهه ... قد اشتري أنا أيضا كلبا ... أريده لقيطا صغيرا في لون أصفر . وبدينا في نفس الوقت . وأريد أن يحفظ في كل شريان من شرايين جسده حقدا دفينا هو الحقد الذى يضمره لنا المائة وخمسون كلبا . سيكون

مخيف الشكل عنيدا خبيثا وسيكشر عن أنيابه دائما بصفة مرعبه تبدل سيماء وجهة » .

طفقت أضحك بينما كانت الطالبة تضغط باسنانها على شفتها بشدة . ثم سمعتها تقول : « يا إلهي ... كم نحن انجاس ملاعين !! » وعدنا الى المخازن الخشبية فوجدنا قاتل الكلاب وهو فى حديث مع أحد موظفى المستشفى بينما كان طالب الجامعة الحرة يستمع اليهما بانتباه كبير .

يقول الموظف : « ميزانية المستشفى وامكاناته المادية غير كافية للغرض . فالكلاب ليست من شأن المستشفى ولا من مشمولاته . لقد قررنا اليوم نقلة الشخص المكلف باطعامها الى قسم آخر » فيجيبه قاتل الكلاب : « لكن يا سيدى ... ليس باستطاعتنا أن نعدم جميع الكلاب فى هذا اليوم » .

فيردف الموظف : « قلت لك اننا منذ البارحة قطعنا الطعامعن الكلاب » فيحاول قاتل الكلاب أن يكشف عن جلية الامر فيسأل : « أتعطونها ما تأكل اليوم أم لا ؟ أريد أن أعرف » .

فيجيب الموظف : « كنا نطعمها بالفتات المتبقى من مأكولات المستشفى .. واذ نحن فى حاجة الى إطعام الموظفين بدرجة أولى فانها ستأكل لسد الرمق .. لن تكون جائعة على كل حال .. لكن ... » .

فيقول قاتل الكلاب حانقا : « أريد أن أعرف بالضبط ما ستأكل ... سأقدم طلبا فى ذلك . تفصيلا . نطعمها من فتات المأكولات لا ضير ... فكرة طيبة ... لكن هل لى أن أعرف أين يوجد ذلك الفتات . وهل يوجد فعلا فتات ؟ » .

فيجيب الموظف : « سأتثبت من ذلك حالا ... وبعد ذلك أعطيها كل ما هو موجود » . فتقاطعهما الطالبة الشابة بقولها : « سأحاول أن أساعدك على ذلك » . ويصيح طالب الجامعة الحرة فى حنق ومرارة : « اتركوا ذلك !! وكفوا عن الهذر » .

ينظر قاتل الكلاب والموظف الواحد الى الآخر فى اندهاش ثم يوجهان انظارهما صوب وجه الطالب وقد علته حمرة قانية . ويتابع الشاب صياحه :

« قلت لكم اقلعوا عن هذا اللغط .. لا أكثر ولا أقل ... » .

يبدى قاتل الكلاب حركة تعجب مشفوعة بصيحة : « آهاه ... » ويضيف طالب الجامعة الحرة فى غضب :

« شيء فظيع ومثير للاعصاب . ستقتلون هذه الكلاب جميعها بعد غـد . فسيان عندها أن تطعموها أو تدللوها . كل ذلك فى نظرها تفـاهة وسفالة مخجلة . فأنا لا أسمح لنفسي بأن أفكر مجرد تفكيـر فقط فى كلب على أن أصرعه عندما أتخيله وهو يبصبص بذنبه بينما أنا أقدم له بقايـا مـوائد الطعـام » .

فيضيف قاتل الكلاب فى لهجة المعلق لكن فى غضب :

« الحساب مضبوط ... اليوم علينا ان نقتل خمسين كلبا . ولا يمكن قطعا أن أقطع الطعام عن المائة الباقية. لا أستطيع أن أكون قاسيا الى هذا الحد...».

فيقول المطالب الشاب مستهزئا وغير مسلم بما يسمع :

« حقيقة ما تقول ؟ لا أستطيع أن أكون قاسيا الى هذا الحد ... » .

ويتقدم قاتل الكلاب والموظف معا فى اتجاه الشبح المتسلسل بين صناديق الحزن . كان طالب الجامعة الحرة متكئا على السياج فى وضع من تخدر ففترت عضلاته ... بنطلونه ملطخ بآثار دم الكلاب ... وكان يصيح رغـم ذلـك فى لهجة من لم يقتنع :

« يا للشيطان ... ماذا يريد أن يقول بهذا الكلام ؟.. ما مدلول القسـاوة عنده ؟ هذه الطرق صبيانية ومزعجة حقا » .

الفتاة تنظر الى الارض بعينين لا مباليتين فارغتين وتلـوذ بالصمت . على ثوبها اتخذت بقع الدم شكل رأس جمل وتميز لونها الاخضـر الداكـن عن الاوساخ الاخرى التى تلوث بها الثوب . قالت فى اتجاهى :

« هاي ! الا تعتقد أن كل هذا رجس وقذارة ؟ » .

قلت فى عدم اكتراث : « نعم ... أعتقد ذلك بدون شك ... » .

تقرفص الطالب قليلا وقال وهو يغض من طرفه وفى صوت خافت : «أنا لا أتحمل حتى مجرد التفكير فى هذه الكلاب القابعة وراء هذا الجـدار القصير . نحن باستطاعتنا أن نشاهدها من فوق الجـدار لكن هى ... لا تستطيـع أن ترانا ... هى تكتفى بانتظار الساعة التى تقاد فيها الى المجزرة » .

وتعلق الشابة على ملاحظته فتقول :

« أن ترانا أو لا ترانا من فوق الجدار ... ذلك أمر لا أهمية له بالنسبة اليهنا » .

فيضيف الطالب :

« صحيح ... لكن ما لا أتحمله قطعا .. هو بالذات أن نعتقد أن ذلك ليست له أهمية بالنسة اليها . ثم أيضا أن نجد أنفسا فى وضع لا نستطيع معه التمييز بين حالتين بينما نقبل بعد ذلك مبدأ أكل لحومها » .

كان كلامه يحرجنا . أخذت العنان الذى كنت أؤرجحه حول خصرى وعجت أبحث عن كلب آخر . وقلت فى نفسى : « سآخذ هذه المرة اكبرها ... صاحب الاذنين المتدليتين » .

وجن الليل عندما فرغنا من الانشغال بالعدد الخمسين فرحنا الى الحوض لنغتسل بينما كان قاتل الكلاب منهمكا فى تكويم الجلود بعناية ثم جمعها حزمة بواسطة حبل . وتقدم منا الرجل المكلف فى المستشفى برفات ما سلخنا من الكلاب . فغسل يديه ورجليه وطفقنا جميعا نراقب عن كثب ما كان قاتل الكلاب بصدد فعله .

وسأل طالب الجامعة الحرة :

« ماذا سنفعل بهذا العدد من ركام الكلاب ؟ » .

فأجاب الرجل فى بساطة :

« انظر الى هناك ... انهم يهمون باحراقها » .

فاتجهت انظارنا نحو منطقة الدخان المتصاعد من الاتون المستعر . عمود رقيق من الدخان المحمر يرتفع الى السماء .

سأل الطالب ثانية :

« فى مثل هذا الاتون تحرق جثث البشر ... أليس كذلك ؟ » .

فنظر اليه قاتل الكلاب وأمعن فى وجهه مجيبا فى نفس التساؤل :

« وما الفرق بين جسد انسان وجسد كلب ؟ » .

فاطرق الطالب ولم ينبس بكلمة . ارتعش كاهلاه ارتعاشا خفيفا ولاح على وجهه الغضب فيما اعتقدت .

وقالت الطالبة الشابة كلاما لم يعره أحد أى اهتمام :

« فى نهاية الامر ... كلهم يختلفون ... لا شبه للواحد بالآخر » بدرت مني بعد أن خيم علينا الحرج حركة اشفعتها بملاحظة : « ألوان الدخان تختلف فعلا . هذا لون جميل ... نفس اللون الذى يتخذه جسد الانسان المحروق » .

وتابعت :

« ربما هم بصدد احراق شخص يتمتع بصحة طيبة ... كلا .. يقيني انهم يحرقون الكلاب . لا شك فى ذلك ... غروب الشمس يضفي هذه الروعة على لون الدخان » .

سكتنا ثانية ونحن نشاهد الدخان المتصاعد من الفرن فى اتجاه السماء . وشرع قاتل الكلاب فى وضع كومة الجلود على كاهله . انه يبدو عند غروب الشمس على جانب من العصبية وقوة العضلات . وسمعناه يقول فى تيه من يقوم بالواجب على الوجه الاكمل :

« غدا ... تنتظرنا أشياء كثيرة علينا أن ننجزها .. وغدا نكون على موعد مع يوم جميل » .

وكان الغد مشمسا راشقا .

لم يأت الرجل المكلف بقتل الدواب لكن العمل أنجز بشيء من البطء اذ فرغنا من القيام بثلثى العمل عند الظهر . شعرنا بألتعب لكن كنا راضين مرتاحى البال نسبيا . لكن طالب الجامعة الحرة ظل وحده منطويا على حالة نفسية لا يخفى ما كانت عليه من اضطراب . كان سريع الانفعال فعلا . وكانت بقع الدم التى لوثت بنطلونه تزعجه وتؤذيه . ظل يتذمر من أن رائحة الدم لم تفارقه ليلة البارحة حتى بعد ما اغتسل ومكث طويلا فى الحمام : « لقد تجمد دم الكلاب تحت أظفارى ولم استطع أن أنزعه منها والحال انى اغتسلت بكثير من الصابون وحككت جلدى حكا لأتخلص من رائحة الكلاب . فشلت كل المحاولات » .

كنت تعبا لكنى طفقت أمعن النظر فى يديه الوسختين . كانت أظافر أصابعه الرقيقة ملطخة بالدم فعلا .

لاحظت الطالبة الشابة :

« لم يكن عليك أن تقبل هذا النوع من العمل » .

فأجاب وقد توترت اعصابه من جديد :

« ليست هذه هى الحقيقة ... لو لم أقبل أنا هذا العمل لاستمر الدم يتسرب لا محالة تحت أظافر شاب آخر لن يكون بمقدوره أن يستأصل شافته ويقضى عليه تماما. وستظل رائحة الكلاب عالقة بجسده فواحة كريهة. وأنا لا أتحمل ذلك ... قطعا » .

فلاحظت الطالبة من جديد :

« أنت اذن شاب انسانى » .

خفض طالب الجامعة الحرة بصره مطرقا صامتا وشعور حاد بالحرج كان يبدو على كل جوارحه . يهزه هزا . لم يكن باستطاعته أن يحاور قاتل الكلاب وقد هم بالتحدث اليه والدخول فى مناقشة معه . ولم يقبل قاتل الكلاب الاهانة عن طيب خاطر فخرج من الساحة الفسيحة وأشعل سيجارة بينما وقف طالب الجامعة الحرة مسمرا فى مكانه وقد أولانا جميعا ظهره .

تقدمت من القاتل بينما كان يجر الكلب من عنانه والكلب يتبعه ببطء . فسلمنى الكلب وهو يقول بصوت الآمر :

« خذه واوثقه هناك » .

ربطت العنان فى الوتد عند مدخل السياج وأتانى صوت قاتل الكلاب من جديد فى لهجة غلب عليها القلق :

« كل هؤلاء الكلاب طيعة سهلة المراس ... ابحث دائما عن واحد منها متوحش ضار ... ليكن فى حجم العجل ... ضرغاما » .

فلاحظت فى تثاؤب وقد غمر الدمع مقلتى :

« قد يعسر صرع مثل هذه الكلاب ... وهب أن ضرغامك يفلت من بين أيدينا » .

فهمهم القاتل « آه ... أوه » قبل أن يضيف فى لهجة الواثق من نفسه :

« لى طريقتى لترويضها ... وأنجح دائما فى تهدئة أعصابها » .

قال ذلك وهو يبتلع ريقه فى عسر والدمع يبلل عينيه ثم طفق يرجرج يده المشعرة عند المفاصل والبراجم فى مستوى رباط حزامه المفكوك فى اضطراب لم يتمكن من اخفائه .

وصاح فيه الطالب الشاب بعنف واحتجاج :

« كفى هذرا . لا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام القذر الذى ينم عن الخساسة والضعة » .

فلاحظ قاتل الكلاب موضحا موقفه :

« كلامى لا لبس فيه . أبين الطريقة التى استطيع بها أن أهدىء أعصاب كلب هو فى حجم عجل صغير » .

فارتعشت شفتا الطالب وهو يقول :

« وأنا أقول لك : إن الطريقة التى تتوخاها لذلك الغرض خسيسة ووضيعة... حتى ولو تعلق الامر بالكلاب فالاجدر بك أن تتعامل معها بطريقة متحضرة رقيقة » .

فامتقع لون وجه قاتل الكلاب وتطايرت قطرات ريقه كالشرر من فمه وهو يقول للطالب فى حنق :

« أراهن أن ليس بمقدورك أن تصرع كليبا صغيرا ... فمن الهين أن يهرف الانسان بما لا يعرف ... » .

واستشاط الطالب غضبا وعض شفتيه وحملق فى وجه القاتل وفى عينيه مباشرة. ثم افتك الشفرة من يد الرجل وأسرع فى اتجاه الكلب المربوط بالوتد فى المدخل . فطفق الكلب ينبح فى جنون لمرآى الشاب وهو يهجم عليه شاهرا سلاحه الخطير . فشعر الطالب بألم مبرح لكنه تقدم من الكلب بخطى ثابتة وأهوى عليه وهو يلهث بشدة وعناء . وخر الكلب على السياج وقد أصابته الشفرة فوق الاذن . لم تكن الضربة هى القاضية لان الكلب أخذ ينبح فى استعطاف وأنين لكنه لم يمت لحينه . ظل ينزف ... ينشف بالتدرج من دمه وهو يترنح من الألم كالمخمور . وكان الطالب وقد ثبت فى الضحية عينيه يتنفس بعسر وهو جامد ساكت .

وصاح قاتل الكلاب فى غضب :

« هاي ! اقتله يا رجل !! عجل به ولا تتركه يتعذب ! » .

لكن الطالب ظل ساكنا . ثم فتح فمه وطفق يتثاءب وقد ارتعشت فرائصه . أما الكلب فكان يضطرب وهو يحاول ان يجذب عنانه وهو يسحب رجليه الخلفيتين في عناء . فأسرعت وافتككت الشفرة من يد الطالب . كانت عينا الكلب جامدتين لا تطرفان . وكان الدم يتدفق من فمه . ضربته على جبهته بعنف . فانبعثت منه صرخة شبيهة بزقزقة عصفور ، قبل أن ينهار .

سمعت طالب الجامعة الحرة يقول : « يا للفظاعة » .

فهمهمت : « آه ... أوه » فأضاف الطالب فى عتاب وقسوة :

« أنت رجل جبان ... الكلب لم يقاوم ... كان خائر القوى تماما » .

واجتاحنى الغضب وكاد يخنق أنفاسى لكنى أوليت الطالب ظهرى ونزعت العنان من عنق الكلب . لم أحتفل قط بطالب الجامعة الحرة ... لم أعره أى اهتمام .

قلت : « اذا لم يتوفر لديك السلاح الملائم فقتل الكلب يصبح معضلة وخطرا صرفا » .

والحال أن السلاح الذى كان فى يدي لم يكن السلاح المناسب .

وفى آخر ساعة من النهار عض كلب أصفر وركه . وعندما بلغت مدخل الساحة المسيجة مصحوبا بالكلب الصغير رأيت الطالبة الشابة تلقائى تسحب جلدا داميا . فذعر الكلب لمرآى الدم فحاولت أن أخفف من ثائرته بجذبى لعنانه لكن الكلب ظل يئن أنينا حادا وهو يتابع عض وركه . وخرج قاتل الكلاب من الساحة وأخذ مني الكلب بسرعة . لكن وركى بدأ يؤلمنى كأنه دخل فى نوم عميق .

قالت الطالبة الشابة :

« مجرد نباح ... مجرد كلب أصفر يعض وركك » (I) .

(I) تلاعب على الكلمتين اليابانيتين : « نباح » و « أصفر » من نوع الجناس يعسر نقله الى اللغات الاجنبية .

سال الدم فى جوربى . وقاتل الكلاب يصرع الكلب بحد شفرته ثم يفتح فمه ويتفحص فكيه وهو يقول : « غريبة اسنان هذا الكلب .. ما اقبحها . فهى مسنة وغير منسقة ... انظر ... انها منخورة مقدحة » .

شعرت بارتخاء شديد . فأمسكت الطالبة بى لتحميني من الانهيار وتقدمت بضع خطوات . لكنى كنت فى شبه غيبوبة . وآلمنى أن يرانى طالب الجامعة الحرة على تلك الحال من الهزال . مددونى على مقعد من الجلد وأحاطت ممرضة وركى بضميدة نظيفة .

سألتنى الممرضة :

ـ « هل تشعر بألم ؟ » .

ـ « كلا ... لا أشعر بأى ألم » .

فأردفت قائلة : « ذاك ما كنت أظن » وشدت الضميدة وهى ترمقنى قائلة :

« حاول أن تمشى قليلا » .

ارتديت بنطلونى وحاولت أن أقف على رجلى .

قلت : العصب تمطط شيئا ما بسبب ضغط الضميدة على الورك .

قالت : لا تشغل بالك بذلك . سوف أحرر لك وصفة طبية بعد حين .. لكن بعد ان تقضى وطرك (1) .

قلت فى دهشة : وطرا ؟ وكيف ذلك ؟

قالت : من دون شك . أنت لا تريد أن أحشرك فى زمرة الرعاع ... أليس كذلك ؟

قلت : وقد استويت على مقعدى وطفقت انظر الى خدوش أظافرى على وركى : « لم تقولين : من دون شك ؟ » .

أجابت بصوت الواثق بنفسه : « ليس من السهل مواجهة الرعاع أليس كذلك ؟ وأعنى بذلك أن قضية هى قضية حياة او موت . فى أغلب الاحيان على الاقل ... » .

---

(1) تلاعب على كلمة « وطر » التى تعنى هنا فى نفس الوقت « العمل الذى أنت بصدده » أى قتل الكلاب .

قلت فى يأس : « آه ... اذن حلت بى الكارثة » .

قالت : « وماذا تقصد ؟ » .

وسمعنا صوتا من الخارج ينادى : هى ... هاى ... هاى ... » .

فتحت الباب ونزلت الدرج الخارجى . كان قاتل الكلاب والآخرون متجمعين أمام المخازن الخشبية . وقد توسطهم شرطى أخذ يحملق فى وجهى بفضول . مشيت فى اتجاهه ببطء ولم يلبث الشرطى عندما انتهيت اليه أن سجل فى كنشه اسمى وعنوانى ... هويتى كاملة . فسألته مستفسرا الامر :

ـ « ماذا جرى ؟ » .

فضغط الشرطى باصبعين على ارنبة أنفه ولم يعر جوابا .

قالت الطالبة الشابة : « أوه ... هه ... أظن أن هذا الشاب قصاب . وأنه يبيع اللحم الى حوانيت الجزارين . والجزارون يتذمرون . كما لو كان قطع على نصفين ... » .

رحت أرشقها بعينى فى تعجب وأنا صامت .

فتابعت كلامها : « ذاك يعنى أننا نخسر المال... آه... بحيث لا يهمنا قطعا أن نستغنى عن خدماته . لا غنم لنا من ذلك » .

نظرت الى قاتل الكلاب ثم الى طالب الجامعة الحرة ... بامعان . كان يعلو وجهيهما الخجل وبعض اليأس .

ـ « لكن كيف سأتمكن من دفع مصاريف العلاج ؟ » .

ـ « لا الشاب هذا ولا القصابون الذين خدعهم ... مسهم أى سوء . هم لم يعضوا » .

وقال الشرطى بلهجة لا التواء فيها ... صارمة صارمة : « أخشى أن أكون مجبرا على استدعائك فى وقت لاحق لمزيد من التفاصيل » .

فاحتج طالب الجامعة الحرة قائلا :

« سيان عندنا أن تستدعينا أو تخلى سبيلنا... نحن لم نبع قط لحم الكلاب ، لاى كان ... ثم ثق يا سيد بأن قتل الكلاب على نحو هو خلو تماما من اللياقة والكياسة ليس بالامر الذى يروق لاحد . بل أنه على عكس ذلك تماما » .

وتظاهر الشرطى بعدم الاستماع الى ما قاله الطالب وانصرف لا يلوي على شىء . وغاب فى الافق ... فى الطبيعة المخضرة .

مكثنا على حالنا ساكنين يلفنا صمت سميك . وأحسست بألم الجرح يدق فى ثبات رتيب . لقد بدأ يتورم أكثر فأكثر .

وسألت الطالبة الشابة :

« أتساءل الآن عن عدد الكلاب التى صرعناها ... سبعين ربما ؟ بحيث بقي أمامنا ثمانون » .

وسأل طالب الجامعة الحرة بدوره :

« ماذا سنفعل الآن ؟ » .

وقال قاتل الكلاب فى صوت الناقم :

« أنا سأعود الى المنزل » وعبر السياج باحثا عن أدواته . واتجهنا ثلاثتنا صوب الطريق التى تمر بأقواس القنطرة . فاقتربت منى الطالبة الشابة وهى تسألنى :

– « اذن ... يقينى أن الجرح بدأ يؤلمنى » .

– « صحيح ... هو يؤلمنى جدا » .

– « يقال انه لا بد أن تلحقنى ضربات من أجل ذلك ... أنا أيضا » .

قلت : « شىء فظيع كما ترين » .

وبدأت الشمس تنحدر الى الغروب . ونبح كلب بشدة . فقلت بصوت حزين :

« نحن نعتقد أننا صرعنا كلابا ... كلا ... نحن فى واقع الامر قتلنا أنفسنا » .

فكشرت الطالبة عن أنياب الاسى وطفقت تضحك بمرارة قاسية . فضحكت بدورى ... والتعب يهدنى هدا .

قالت : « الكلاب قتلناها ... لقد انهارت صرعى ونزعت عنها جلودها » .

قلت : « نحن أيضا صرعنا ودمرنا ... لكنا نسير ... ما زلنا نمشى على الارض مرحا » .

سكتت وكأنها تبحث عن كلام انحبس فى حلقها ثم قالت : « صحيح ... بامكانك أن تقول : إنهم عرونا من جلودنا ... نحن أيضا » .

نبحت جميع الكلاب حولنا ... ناحت ... ارتفعت أصواتها فى صلاة الى السماء الليلية . أمعنت فى نباحها المنتحب طوال ساعتين .

تعريب : **مصطفى الفارسي**

معراج النسر

شعر: محمد العياشي

النسر ضاق بعيشه صدرا   فطوى العباب وغادر الوكرا
جُهد الهموم أقض مضجعه   وأذاقهُ الأوجاعَ والضّرّا
ومصائب الأيام إذ وردت   سودا عوابس تنشر الذعرا
وعواصف هوج إذا عصفتْ   لمعتْ بوارق حقدها جمرا
فترى الجبال تميد جامدة   تتوقع المكروه والشرا
وترى الفجاج تضجّ مفزعة   من هولها تستفسر الأمرا
والوكر وكر النسر قد نسفتْ   أركانه فتخالهُ قبرا
يا ويحه شر تخطفه !   فأذابه وأذاقهُ المرا
يا ويحهُ تُبرى السهام له !   وتراش ثم تصيبه غدرا
يا ويحه في عقر مضجعه !   يأوي الردى وسهامه تبرى
قد كان هان على كرامته   لو نازل الشاهين والصقرا
لكن بغاث الطير تنهشه   وتجيل فيه الناب والظفرا
فغلت مراجل صدره ألما   وسرت لواعجُ حزنه جمرا
فهفا وطار يقله غضب   لو يستبين لأفزع الدهرا
ولأذهل الأيام فانشغلتْ   عن سيرها فتراجعتْ ذعرا
ملّ المقام وعاف منزله   وجفا الحياة وأهلها طرّا
قد عاف حتى ظله وغدتْ   أيامهُ من ضيقها أسرا
فسما إلى الأجواء منبعثا   ينساب فيها مطلقا حرا
في مطلق لا ينتهي أبدا   يأبى الحدود وينكر الحصرا
وبحيث لا ظلٌ ولا عددٌ   يستنزفان حياته جبرا

فكأنه ماء تبجّس من ... جوف الصخور فخالط البحرا
وكأنه نور تبثّق من ... قلب الهشيم فخالط الفجرا
وكأنه فهم تجرد من ... وهم الظنون فخامر الفكرا
وكأنه سر تخلص من ... طي الضمير فلمْ يعد سرا
في شاسع الأجواء منفسح ... للنسر كي يحيى بها نسرا
فيدور في أجوازها فلكا ... ويشع ضمن بدورها بدرا
ويراقب الأكوان عن كثب ... ويسامر المريخ والزهرا
ويظل يعرج كالشعاع إذا ... شق الظلام وولّد الفجرا
ويظل يسري كالخيال إذا ... رفع الحجاب وراود الفكرا
يتأمل الأكوان معتبرا ... مستقصيا أغوارها سبرا
فيتيه فيها فكره جذلا ... وتهيم فيها نفسه سكرى
حتى إذا ضاقَ الفضاء به ... من رُحبه فبدا له أسرا
ولىّ يسب المشتري حنقا ... والفرقدين ويلعن الشعرى
أو يلعن الجوزاء في غضب ... والثور والميزان والعذرا
فارتد نحو الأرض منفتحا ... للوكر تطفح نفسه بشرا
وهوى يسابق شوقه طربا ... ويداعب الأحلام والذكرى
لا يأمننّ الغر وثبته ... إن عاد يوما يطلبُ الوكرا
ليدور في أكنافه فلكا ... ويشع في أحضانه بدرا
في الضيق في الإرهاق في حرج ... لا يستطيع لنفسه أمرا
فالحر لاينفك في رَهق ... يُعطى القيود ويُمنح الأسرا
والحر ليس تزول ضيقته ... حتى يكون دماغه قبرا
فليلتمس قبرا يلوذ به ... أو فليعش في أسره حرا
مادام معنى الأسر منطبعا ... في نفسه يحتازها قسرا

محمد العياشي

تونس في نظر الشعراء الجزائريين

بقلم : د. محمد صالح الجابري

من المظاهر الهامة التى تحسب فى ايجابيات الشعراء الجزائريين المهاجرين الى تونس ، مظهر الوفاء والعرفان والحفاظ على صلة الرحم ، وتعميق أواصر القربى ، وكلها تلمس بجلاء فيما كتبه هؤلاء الشعراء عن تونس ، وكفاحها الوطنى ، وزعمائها ، وعلمائها وأدبائها .

انها صفحة من الصفحات المشرقة التى يجدر نشرها ، والتذكير بها ، والاشادة باصحابها نظرا لما كان لهم من تجاوب تلقائى مع احداث الوطن الثانى ، وطن المعرفة والاقامة ، واعتبارا لاسهامهم سهاما مباشرا وغير مباشر فى الحركة الوطنية التونسية .

يتجلى هذا الوفاء فى صور متعددة منها الوفاء للوطن والشعب ، ويتمثل فى تعبير هؤلاء الشعراء عن التأييد والمؤازرة المتواصلة للكفاح الذى كان يخوضه الشعب التونسى ، والتجاوب مع الاحداث الوطنية ، والاشادة بزعماء هذا الكفاح بمختلف اتجاهاتهم دون اعتبار للخلافات والحساسيات الشخصية القائمة بين هؤلاء الزعماء .

كما يتجلى هذا الوفاء فى مناصرة هؤلاء الشعراء لكفاح الصحافة التونسية ، وتكريم رجالها ، ومساندتهم فى مواقفهم الوطنية ، نظرا للدور الذى كانت تقوم به هذه الصحافة فى مجال التوعية الشعبية والنضال الوطنى اليومى فى كل من تونس والجزائر معا .

على ان مظاهر هذا الوفاء لا تقتصر على الاحداث الوطنية والحياة الصحفية ، بل تبرز فى التعلق الواضح بجامع الزيتونة الذى نهل من معينه العلمى هؤلاء الشعراء ، وبعلماء الزيتونة وبشعراء وأدباء تونس بل بتونس بأسرها أرضا وشعبا وطبيعة خلابة ، وعيونا ساحرة .

موقف الشعراء من الحركة الوطنية

من المعلوم ان عددا هاما من المهاجرين الجزائريين الى تونس كانوا التحقوا منذ العشرينات بصفوف أول حزب وطني تونسي ، وهو الحزب الحر الدستوري التونسي (1) الذي تأسس في شهر ماي 1920 بزعامة الشيخ (عبد العزيز الثعالبي). ومن هؤلاء الجزائريين الشيخ (ابراهيم اطفيش) والشيخ (صالح بن يحي) و (ابراهيم بن الحاج عيسى) (أبو اليقظان) ، اضافة الى بعض الجزائريين الآخرين الذين كانت اقامتهم بتونس تمتد الى فترات أبعد في التاريخ : أمثال (احمد توفيق المدني) و (عبد الرحمان اليعلاوي) (2) و (الطيب بن عيسى القرواوي) ·

على ان اسهام هؤلاء في نشاط هذا الحزب لم يكن اسهاما عابرا ، وانما كانوا بالاضافة الى عضويتهم الرسمية في لجانه العليا يقومون بنشاط حثيث لدعمه بالمال (3) والانصار مما أغاض المستعمر ودفعه الى تشتيت الجزائريين وإبعاد بعضهم الى المشرق كابعاد الشيخ (اطفيش) الى القاهرة في سنة 1923 وابعاد آخرين الى الجزائر مثلما حدث بالنسبة للزعيمين (احمد توفيق المدني) و (عبد الرحمان اليعلاوي) في سنة 1925 بتعلة ان جميعهم جزائريون وان وجودهم بتونس يشكل خطرا على الوجود الاستعماري نفسه ، وان القصد من انضمامهم الى الحزب الدستوري التونسي ، هو الانطلاق الى تأسيس حركة سياسية جزائرية تونسية تتمكن في يوم من الايام من تنسيق كفاحها وعملياتها المشتركة ضد الوجود الفرنسي في كلا القطرين ·

(1) انظر تفصيل هذه المشاركة وابعادها السياسية والفكرية في الفصل الخاص بالنشاط الوطني من دراسة (النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس) للمؤلف ، نشر الدار العربية للكتاب سنة 1983 ·

(2) من أصل جزائري ، انخرط مع الرعيل الاول في الحزب الحر الدستوري التونسي ، وكان له نشاط سياسي وصحافي ، اضطر الفرنسيين الى ابعاده الى الجزائر في سنة 1925 ، بدعوى انه من أصل جزائري ، ساهم في الثورة الجزائرية وكان مسؤولا ماليا في أجهزتها ، وممثلا للثورة في سوريا ·

(3) كان الشيخ صالح بن يحي قد كلف في سنة 1920 من طرف الحزب بالسفر الى جنوب الجزائر لجمع المال من الانصار ومؤيدي الحزب ، انظر (حياة كفاح) لتوفيق المدني ج 1 ص 194 ·

وقد استمرت علاقة الجزائريين بالحزب الحر الدستوري التونسي رغم ضروب التشتيت والابعاد الجماعي الى ما بعد انقسام هذا الحزب في سنة 1934 الى جناحين : قديم مع عبد العزيز الثعالبي وجديد مع الحبيب بورقيبة ، فرأينا من ابرز الذين أيدوا الحزب الدستوري الجديد الشاعر (محمد العيد الجباري) والقصاص (محمد العريبي) والشاعر (محمد الاخضر السائحي) .

وقد تمثل تأييد هؤلاء للحزب الجديد ، في الاقبال على الكتابة المتحمسة في جريدته (العمل) التي أنشأها الحزب في سنة 1934 بالاضافة الى مدح زعمائه والتعرض للسجن بسبب هذا التأييد المادي والمعنوي كدخول محمد العيد الجباري السجن سنوات 1934 ـ 1939 ومحمد العريبي السجن سنة 1939 مع جملة الزعماء السياسيين الذين تم ايقافهم وابعادهم الى مناطق مختلفة من البلاد من طرف السلطات الاستعمارية .

وما من شك في ان هذه المشاركة السياسية التي تمتد عبر تطور الحزب الدستوري وتقلباته المختلفة خلال فترة تتراوح على الاقل من سنة 1920 الى قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1940 ، تدل دلالة واضحة على مدى ترابط المثقفين الجزائريين الذين اقاموا بتونس مع زملائهم التونسيين ، وضروب ما أبدوه من شجاعة وبسالة في شد أزر الحركة الوطنية التونسية التي كانت ممثلة بصدق طيلة هذه المرحلة في نضال الحزب الحر الدستوري التونسي .

إنه بلا مراء مظهر الوفاء السياسي لتونس وشعبها وزعمائها وقد تجسد هذا المظهر فيما خلفه هؤلاء الجزائريون من تراث سياسي وفكري يتناول القضية التونسية باعتبارها قضية وطنية قطرية . كما يتناولها في كثير من الاحيان في الاطار المغربي العربي الاسلامي .

ولم يقتصر هذا الوفاء على المقالات السياسية التي كانت تعبر بلسان الساسة وتحلل الاحداث اليومية ، وتهتم بقضايا الساعة ، والتحولات السياسية وانما تجاوز هذا الوفاء ليغمر قلوب الشعراء وتفيض به احاسيسهم في قصائد تؤثل مواقف زعماء هذا الحزب القدامى والجدد ، وتمتدح جهادهم وشجاعتهم وتعبر بلسان الشعوب المغربية عن مظاهر العرفان لتضحياتهم وبسالتهم وترفدهم بالحماس والنخوة .

على أنه لابد من الملاحظة بأن مديح الزعماء في هذه المراحل الاولى من الكفاح الوطني يختلف اختلافا اساسيا عما عرف به بعد الاستقلال من ألوان من المديح لها اغراض معلومة .

فالمديح فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات كان الدافع الاساسى له الحمية الوطنية لا غير ، وكان جزاء الشاعر منه الاضطهاد والتنكيل من قبل المستعمر . ولذا فانه يصح اعتبار قصائد المديح التى رافقت تطور الحركة الوطنية فى هذه المرحلة (وثائق سياسية وطنية) و (شهادات شرف) تعبر عن الشجاعة من طرف الشعراء لانها لم تكن تقصد تملق الزعماء والحصول على النوال والمنة ، بقدر ما كان الهدف منها شحذ همم هؤلاء الزعماء والتعبير عن توق الشعوب وطموحها الى النضال والتحرر .

لقد كان (أبو اليقظان) بحكم مشاركته الفعلية فى الحركة الوطنية التونسية ، وتاييده العلنى لقيام الحزب الدستورى التونسى اول من عبر من الشعراء الجزائريين عن ابتهاجه بظهور الحزب الدستورى ، ومناداة هذا الحزب بقيام نظم دستورية من شانها ان تخفف من وطاة الحكم المطلق الذى كانت تمارسه فرنسا على الشعوب المستعمرة ، فكتب من وحى الدعوة الدستورية قصيدته (الدستور) (4) يحرض القراء على التمسك بالمناداة بالدستور باعتبار أن الدستور ضمان للعدالة وخطوة اولى فى سبيل اقامة حكم منصف :

لو لم يكن فى الكون دستور لما ظهرت عجائبه لنا وعجاب
هذا هو الدستور والقطب الذى دارت على أفلاكه الاقطاب
هذا هو الدستور والمغزى الذى ترمي الى غاياته الاحزاب
هذا الذى عشقته تونس عندما يفعت ولم تحفل بما ينتاب
هذا الذى بذلت عليه نفائس الاموال ، بل شدت اليه ركاب
هذا الذى سجنت لاجل طلابه العظماء والزعماء والنواب
فاصابهم ما قد أصاب العاملين المخلصين فسرت الاذناب
فتحملوا الضربات بل لم يثنهم من أجله التهديد والارهاب (5)

ولم يكتف ابو اليقظان بمجرد التعبير عن تضامنه مع الحزب الدستورى فى هذه القصيدة ، وتأييده لقيام نظام دستورى يفتح الامل واسعا ومتدرجا

---

(4) نشرت هذه القصيدة بديوان الشاعر (ديوان ابى اليقظان) بعنوان آخر (ما ضاع حق وراءه طالب) ص 86 المطبعة العربية ـ الجزائر 1350 .
(5) جريدة (المنير) 24 اكتوبر 1920 .

أمام الشعوب المغربية الطامحة لفك الحصار عنها ، والحصول على مطالبها المشروعة بواسطة نظام يكفل لها الطريقة التى تنفذ من خلالها الى هذه المطالب، بل ظل ابو اليقظان لا يكف عن التأكيد فى كل قصائده والمجاهرة بتأييد الحزب الدستورى وزعمائه التونسيين والجزائريين على السواء ، من ابراهيم اطفيش الى الثعالبى الى محمد الناصر باى الذى ساند مطالب الحزب الدستورى وكان ظهيرا لزعمائه ٠

كانت فرحة الشاعر عارمة عندما غادر صديقاه (الشيخ صالح بن يحى) و (محمد الرياحى) السجن بعد ايقافهما سنة 1920 بسبب انتمائهما للحزب الحر الدستورى التونسى ، لذلك كان استقباله لهما استقبال الابطال مما حمله على ان يصور بأن سجنهما من اجل الدستور كان سجنا لسائر الفضائل وكان سجنا للنفوس والقلوب وما ذلك منه الا امعانا فى تحدي الاستعمار :

لستم سجنتم أنتم بل انما سجنت بذلك سائر الافضال
فبسجنكم سجن السلام مع الهنا والامن والراحات والامال
سجنت بسجنكم القلوب بل النفو س ، بل العقول فضاق كل مجال
لبست به (الخضراء) ثوب حدادها وغدت به الآفاق فى بلبال (6)

وحين قررت فرنسا نفى الزعيم الشيخ (ابراهيم اطفيش) من تونس الى القاهرة ، فى سنة 1923 بناء على وشاية تقول بأنه كان ينظم حملات التبرع بالمال للدستور وبأنه كان يحتقر السلطة الاستعمارية ، كتب الشاعر قصيدته المعروفة (نفي النفى اثبات) يوجه فيها اللوم لاولئك الوشاة الذين قاموا بفعلتهم عن جهل وغباوة ويهنىء فيها الزعيم المنفى الى القاهرة ، لان هذا النفى من شأنه ـ فى نظر الشاعر ـ ان يقرب بين زعماء المشرق والمغرب ويجمع قلوبهم ويوحد جهودهم ويقوى سواعدهم كى تتحفز من جديد للمعركة القادمة :

قد أبعدوك فقربوك الى الرجا ل فنلت عطفا منهم وحنانا
قد صغروك فعظموك وأنزلو ك منزل العظما فقم شكرانا
خفضوك جهلا منهم لكنهم رفعوا علاك لترفع الاوطانا (7)

---

(6) (المنير) 23 ديسمبر 1920 حيث نشرت هذه القصيدة بالعدد المذكور تحت عنوان (الحياة) ثم بديوان الشاعر بعنوان (السجن مجمرة تفوح بها قيم الرجال) ص 54 ٠

(7) (ديوان ابى اليقظان) ص 60 ٠

ونرى حزنه يعظم فى رثائه لمحمد الناصر باى (8) احد البايات ممن عرفوا بمناصرتهم للدستور ، والوقوف الى جانب زعمائه ، فقد شعر (ابو اليقظان) بان موت هذا الباى كان فجيعة حقيقية لتونس ، ولكل دستورى بل ان موته أوهمه بأن يؤدى الى موت تلك المبادىء التى رعاها رغم خلافه مع المستعمرين فى هذا الصدد ولعله لهذا السبب اشتط فى البكاء ، ودعا الجميع لان يبكى هذا الملك (القدوة) فى نظره :

أولا يحق لتونس الخضراء ان تبكيه دمعا مازجته دماء
ولئن بكته فانما تبكى على وطن تحلق فوقه الارزاء
ولئن بكته فانما تبكى على الدستور اذ خنقته ذى النكباء
ولئن بكته فانما تبكى على رغباتها اذ فاتها الاصفاء (9)

فجيعة الشاعر وحزنه على وفاة (محمد الناصر باى) ، وأحيانا لومه هذا الشعب الذى كان يؤازره هذا الباى فأضاع بضياعه مطلبا من أهم المطالب الذى كان ينشدها ويناضل من اجلها الجميع وهو الدستور ، لم تكن الفجيعة بسبب فقدان الامل فى الرجال الذين اقاموا الحزب على اساس المطالبة بالدستور ، ولكنها عواطف الشاعر واخلاصه للمخلصين من الرجال مهما كان موقعهم من الحكم خصوصا اذا ما كانوا على شاكلة (محمد الناصر باى) الذى عرف عنه انسياقه وتزكيته لمطالب الدستوريين الشرعية .

حتى اذا أدرك الشاعر ان الحزب الدستورى لم يمت بموت الناصر باى ولا تأثر بذهابه لانه لم يكن من مؤسسيه ولا من الذين تحملوا الاذى فى سبيله ارتفعت معنوياته ، وانعكست فى قصائده الاخرى التى مدح بها زعماء الحزب الذين تابعوا اداء الرسالة ، ومن ضمن هذه القصائد قصيدته التى مدح بها (الشيخ الرئيس) اى الشيخ (عبد العزيز الثعالبى) الذى كان رئيس الحزب الدستورى انذاك .

فبمناسبة اطلاق سراح الثعالبى من السجن بعد قيامه بحملته لتقديم القضية الوطنية للرأى العام الفرنسى وترويج كتابه (تونس الشهيدة) نظمت لرئيس

---

(8) محمد الناصر باى (1906 — 1922) من البايات الذين أيدوا المبادىء التى دعا اليها الحزب الحر الدستورى .

(9) (ديوان ابى اليقظان) ص 138 .

الحزب مواكب استقبال شارك فيها شعراء متعددون من تونس ومن الجزائر ، وقد صاحب الوفد الجزائرى الذى هنأ الثعالبى آنذاك الشاعر (ابو اليقظان) الذى أنشد أمام رئيس الحزب قصيدته التالية التى بدا فيها الشاعر منشرحا متفائلا ، اذ قارن عودة الزعيم الى ارضه بعودة الربيع الى الثرى والازهار الى الاغصان وهى القصيدة التى مطلعها :

تبسم ثغر الكون واستبشـر الدهـر   وتاه الزمان الغض بل ضحك العصر
وقرت عيون المجـد والفضـل والعـلا   وغنى لسان العـز والـوقت مخضـر
وهذا الربيع ازدان بالنـور وازدهـى   فيانعم ذاك الورد والنور والزهر(10)

وباستعادة تونس لزعيمها يرى الشاعر انها استعادت روحها وعزتها ، فلا غرو عندئذ أن تقام الاحتفالات بهذه المناسبة وان يجعل يوم عـودته يومـا مخلدا على الدهر تحتفل به الاجيال :

بعـودته عـادت لتـونس روحهـا   فاعجب ببر روحـه ذلـك البحـر
باوبتـه آبـت لـهـا العـزة التـى   أتاها لها الاسـلام والاسـد الغـر
وآب بـه مـا قـد فقدنـا بفقـده   فتم نصاب الانس وانجبر الكسـر
فانعـم بيـوم كان عيـدا ونعمـة   على عالـم الاسـلام فليعـش البـر
سيجعل عيـدا كـل عـام مقـررا   لدى سائر الاجيال ان أنصف الدهر
وما هـذه الافـراح للـذات انمـا   لروح بها رمـز السعـادة والسـر
لروح هى الاكسير والروح والغذا   لشخص هو الدستور فليعش الحر
لمجد ، لهمـات ، لعلـم ، وحكمـة   لحرية فى طيها العز والنشر (11)

(يتبـع)

د. محمد صالح الجابرى

---

(10) (المنير) 5 جوان 1921 .

(11) المصدر السابق .

تداعيات عبدالله في حضرة القصيدة

شعر: عبدالله مالك القاسمي

— (1) —

أتتركيني لحظةً
أتداعى
أفتحُ القلبَ شراعًا فشراعًا
وليكنْ وجهُكِ بحرًا
سُفُنًا ..
وقلاعًا .

— (2) —

زَغَبُ « الشِّعْرِ » نَمَا في جَسَدِي
يا تُرى ..
أحتمي بالوردةِ الحمراءِ أمْ ..
بالبُكاءْ ؟

— (3) —

رَجُلُ الشُّرطةِ يستدرجُ وقتًا ضائعًا
يدخلُ المقهى وحيدًا
يكتبُ الشعر . وفي خلْوتِهِ
يتعرَّى للقصيدهْ

— (4) —

أصدقائي ..
أطردوا هذا المساءْ
كيف يغفُو بيننا ؟

بيننا شعرٌ وخمرٌ
بيننا
شجرُ القلبِ نما
« وبساتين من الأقمار والريح القديمهْ »
بيننا
ستغني العاصفهْ ..
والحجارهْ .
سيغنّي تدرُّجُ الصحراء
زُمَّج الماءْ .
أصدقائي ..
أُطردوا هذا المسَاءْ

— (5) —

صاح في « مكةَ » ديكُ الليلِ ..
فاستيقظ فجر للعَسَسْ .
للنبيذْ

— (6) —

بعدَ حين منْ هنا :
— افتحي بوابة الله .. يمُرّ العاشقون .
بَعْدَ حين منْ هُنَا :
— افتحي بوابة الحلم — الجنون ..
سيَمُرّ الشعراءْ
افتحيها ..
وليكنْ ..
ما سيكونْ

عبد الله مالك القاسمي

فقهاء متكلمون وأصوليون من الأندلس

في القرنين الرابع والخامس للهجرة

بقلم: يوسف الحنايشي

لقد مكن الفتح الاسلامي للاندلس من دخول المذاهب الفقهية لها ، فانجر عن ذلك ظهور حركات فكرية متنوعة المعالم ؛ ولعل أول هذه المذاهب في الانتشار والذيوع لدى الفقهاء وعامة الناس المذهب المالكي ، ويبدو أن بدايات رواجه كانت أيام خلافة الحكم المستنصر (149 هـ / 796 م - 205 هـ / 821 م) عن طريق جمع من الفقهاء المالكيين منهم عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثي وأبو عبد الرحمن زياد بن عبد الرحمان اللخمي الملقب بشبطون (1) . ويشير بعض المؤرخين الى أن أول من أدخل « الموطأ » الى الاندلس هو الغازي بن قيس ، وقد تتلمذ على مالك بن أنس ، وذلك أيام عبد الرحمان الداخل (138 هـ / 755 م - 171 هـ / 788 م) .

ومنذ ذلك العهد تمكن المذهب المالكي من النفاذ الى الطبقات الشعبية وظهر فقهاء يدرسون قواعد المذهب وينافحون من أجله .

وبجانب المذهب المالكي دخل المذهب الشافعي الى الاندلس في حدود القرن الثالث للهجرة عن طريق قاسم بن محمد بن سيار (ت 276 هـ / 891 م) ، ولم يكن له رواج كرواج المالكية ؛ ثم برز « المذهب الظاهري » عن طريق مالكيين في البدء أمثال عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال (ت 272 هـ / 885 - 886 م) ؛ وثبت المذهب خاصة منذر بن سعيد بن عبد الله البلوطي (ت 272 هـ / 886 م - 355 هـ / 966 م) (2) ؛ و يذكر المؤرخون مكانة لمذهب

(1) آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، ط 1 ، ص 418 .

آخر الا ما ندر وشذ ، فالمذهب المالكي ، على غرار غلبته على افريقية وكثير من جهات المغرب ، هو الغالب على بلاد الانـدلس وعلى اجتهـاد الفقهـاء فيهـا ؛ وتسترعي انتباهنا اشارات عديدة وردت في كتب محققة أو دراسات موسعة عن الحضارة الاندلسية تؤكد عدم أخذ فقهاء الاندلس وبخاصة المالكين منهم بالجدل وعلم الكلام والاصول ، فقد أورد المستشرق الاسباني « آنخل جنثالث بالنثيا » رأى أستاذه « آسين بلاثيوس » الذي يقول فيه : « ... درج أولئك الفقهاء من وقت مبكر على الاقتصار على عمل سهل : وهـو البحـث في هذه الكتب عن الاحكام المقررة ، بدلا من الرجوع الى الكتاب والسنة ـ وهما المنبع الرئيسي لأصول الفقه ـ لاستخراج الاحكام فيما يعرض لهـم من الاقضيـة و « الاجتهاد » في ايجاد حلول جدلية بمجهودهم الشخصي ... » (3) ويضيف بمزيد التوضيح : « وانصرفوا كذلك عن النظر في ذلك العلـم المنطقي الذي يسمى « علم أصول الفقه » وهو الفن الجدلي العـادي الـذي يمكنهـم من أن يستخرجوا من الاصول أحكاما مناسبة لما يعرض لهـم من شتـى المسائـل والمنازل ... » (4) ؛ ونجد كذلك بعض الدارسين العرب يعممون هذه الظاهرة على مالكية المغرب والاندلس (5) ؛ ولكن الرجوع الى بعض مصـادر تـراجم الفقهاء قد يكشف عن جوانب تخالف هذا الاعتقاد وتثبت كلف بعض فقهـاء الاندلس وخاصة المالكية بعلم أصول الفقه والتناظر باعتماد علم الكلام والجدل وتبرزهم في ذلك .

ومن هؤلاء الفقهاء أحمد بن يحيى بن عيسى الالبيري الاصولي [ت 429 هـ] روى عنه أبو المطرف الشعبي وذكر عنه : « أنه كان متكلما ، دقيق النظر ، عارفا بالاعتقادات على مذاهب أهل السنة » ، وكان أيضا أديبا شاعرا (6) ؛ ومن فقهاءقرطبة الحسين بن حي بن عبد الملك بن حي بن عبد الرحمان بن جي

---

(3) المصدر السابق ، ص 430 و ص 431 .
(4) المصدر السابق ، ص 430 و ص 431 .
(5) كتاب الاشارة الى أدب الامارة ، لأبي بكر محمد بن الحسـن الحضـرمي القيرواني المرادي ، مقدمة الكتاب لرضوان السيد ، ص 12 ، حيث قال : « ... فالملحوظ أن المرادي كان ذا ثقافة كلامية أصولية ؛ ولم يكن ذلك معزوجا ولا معهودا بين مالكية المغرب والانـدلس والمغـرب الاقصى على الاخص ... » .
(6) كتاب « الصلة » لابن شكوال ، ج 1 ، ص 75 ، طبعة 1955 .

التحيبي « وكان حافظا للمسائل على مذهب مالك ، ذاكرا لأصولهـا » (7) ؛ ومن الاصوليين أحمـد بن محمـد بن عبد اللـه المعـافرى المقرىء الطلمنكى (350 هـ / 429 هـ) وهو من أهل السنة وإمام فيها ، ملم بأصول الديانات (8). ونجد كذلك عبد الرحمان بن مسلمة بن عبد الملك بن الوليد القرشى المالقى (369 هـ / 446 هـ) وكان « مقدما فى الفهم ، بصيرا لعلوم كثيرة من علـوم القرآن والاصول ، والحديث والفقه ... » (9) ، وقد يضع بعض هؤلاء الفقهاء مصنفات فقهية فى علم الاصول كعبد الملك بن أحمـد بن محمـد القـرشى (358 هـ / 436 هـ) الذى « ذكره أبو عمر بن مهدى ... وذكر أنه قـرأ عليه كتابا ألفه فى مناسك الحج وكتابا فى أصول العلم تسعة أجزاء ... » (10) ؛ ومن الفقهاء الملمين بالادب أحمد بن عبد الله بن أحمـد بن عيسى الكنـانى الببيرس (11) ؛ فبجانب تبرزه فى النحو واللغة والآداب والاشعار ، قد كان له نفاذ فى القراءات ومشاركة فى الحديث والفقه والاصول ؛ ومنهـم كـذلك عبد الله بن أحمد بن عبيد الله القـرشى التيمـى (365 هـ / 444 هـ) وقـد اشتهر بدفاعه على المذهب المالكى بالحجج والبراهين (12) ، أما عبد الحق بن أحمد بن عبد الرحمان الخزرجى ، وهـو من قـرطبة ، فقـد كان أيضا محبـا للمناظرات ، « ناظر عنـد الفقيهين أبى جعفـر بن رزق ، وأبى الحسـن بن حمدين ... وكان فقيها ، حافظا للمسائل ، عارفا بالشروط ... » (13) . أما حسين بن عيسى بن حسين الكلبى ، قاضى مـالقة ، فقـد « قـال » [عنـه] الشعبى : كان فقيها فى المسائل ، حافظـا لها ، عالمـا بأصولها ونظائرهـا ، ما رأيت مثله فى علمه بها » (14) ؛ ومن هؤلاء الفقهاء عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد العزيز الصدفى [ت 521 هـ] ، وقد لقى أبا بكر المرادى القيـروانى وأخذ عنه ، وكان يحفظ الفقه والمسائل والفرائض والاصـول (15) ، وعنى

---

(7) الصلة ، ج 1 ، ص 61 .
(8) الصلة ، ج 1 ، ص 93 .
(9) ج 1 ، ص 320 .
(10) ج 1 ، ص 342 – 343 .
(11) ج 1 ، ص 314 .
(12) ج 1 ، ص 291 .
(13) ج 1 ، ص 367 .
(14)
(15) الصلة ، ج 1 ، ص 363 .

أبو حفص عمر بن صالح القيرواني « بالاصول والفـروع ، وأخـذ النـاس عنه ... » (16) . أما أبو أحمد عبد الرحمان بن أحمد بن خلف [ت 405 هـ / 448 هـ ؟] فقد « ذكره الحميدي ، وقال : كان إماما مختارا يتكلـم في الفقـه والاعتقادات بالحجة القوية .. » (17) ، وكان أيضا بجانب ذلك قوي النظر ، ذكي الذهن ؛ ومن الغرباء الذين مروا بالاندلس أو استقروا بها ابراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي ، ابن العباسي ، [ت 513 هـ] ، وأصلـه من سبتة وكان « مقدما في علم الشروط والاحكام ، مشاركا في علم الاصول » بجانب تمكنه في الادب (18) ؛ وكذلك أبو طاهر اسماعيل بن حمزة بن زكريا الازدي، عرف به القاضي عياض ، صاحب « ترتيب المدارك » لابن بشكوال فأكد على ميله لعلم أصول الديانـات « وعنايته به » (19) ؛ وكان عبـد الغـالب بن يوسف السالمي المتوفى بمراكش سنة 516 هـ عارفا بالاصول والاعتقادات(20)؛ أما عبد الله بن اسماعيل الذي سكن بالمغرب مدة وولي قضاء أغمات ويسند له تصنيفان في شرح « المدونة » ومختصر ابن أبي زيد فقد كان ملما بالحديث والفقه ويميل الى « النظر » في المسائل (21) . ومن فقهاء الاندلس الاصوليين أبو الحسن علي الجذامي [441 هـ / 532 هـ] وقد عنى بتفاسير القرآن فجمع كتبا في ذلك (22) ، وقد أدخل بعض الفقهاء مصنفـات في « أصول الفقه » كعلي بن عثمان الربعي الصقلي الذي قدم قرطبة تاجـرا وذكـر لـه أبو علي الغساني كتاب « اللمع في أصول الفقه » وهو لابي عبد الله الحسن ابن حاتم الازدي (23) . أما محمد بن موهب بن محمد التجيبي القبري [ت 406 هـ ؟]، وهو من قرطبة ، فقد « قال عنه الحميدي : كان فقيها عالما ، وطالع علوما في المعاني والكلام ، ورجع الى الاندلس في أيام العامرية فاظهر شيئا من ذلـك

(16) الصلة ، ج 1 ، ص 383 .
(17) الصلة ، ج 1 ، ص 321 .
(18) الصلة ، ج 1 ، ص 102 .
(19) الصلة ، ج 1 ، ص 105 .
(20) الصلة ، ج 1 ، ص 369 .
(21) الصلة ، ج 1 ، ص 279 .
(22)
(23) الصلة ، ج 2 ، ص 309 .

ككلام في نبوة النساء ونحو هذه المسائل التي لا يعرفها العوام ، فشنع لذلك عليه ، فاتفق له بذلك أسباب اختلاف وفرقة ... » (24) .

وقد رحل بعض الفقهاء الاندلسيين الى الشرق وأظهروا كلفهم بعلم الكلام والجدل كأبي القاسم عيسى بن ابراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسي [ت 527 هـ] ، وهو من طلبيرة بالاندلس ، فقد حل ببغداد وناظر فيها فقهاء وأظهر مشاركة في الفقه والحديث وأصول الديانات (25) . أما محمد بن ابراهيم بن موسى الانصاري [ت 455 هـ] فقد كان « فقيها عالما ، وإماما متكلما ، حافظا للحديث والفقه ، قائما بهما ، متقنا لهما ... » « وكانت له عناية بأصول الديانات واظهار الكرامات ... » (26) . وحذق القاسم بن الفتح بن محمد بن يوسف [ت 451 هـ] ، وهو من مدينة الفرج بالاندلس ، الكلام في أنواع العلم وكان « يتفقه الحديث ، ويتكلم على معانيه ... » (27) . أما ابن السراج محمد بن أيان بن عثمان بن سعيد اللخمي [ت 440 هـ] فقد كان عارفا بالمقالات في الاعتقادات وغلب عليه علم الكلام والجدل (28) ؛ ومن أبرز المتكلمين يحيى بن عبد الله بن كيس [ت 436 هـ] ، وهو من قرطبة ، اذ « كان متكلما حاذقا مستبحرا في ذلك ، ما نعلم بالاندلس في وقته أبصر منه بالكلام والجدل ونحو ذلك ... » (29) . ونجد كذلك أبا البسام موسى بن عبد الله بن الحسين [ت 486 هـ] الذي برز في الادب والعلم وكان عنده « معرفة بأصول الدين على مذاهب أهل السنة ... » (30) ؛ وقد كان نافع بن العباس بن جبير الجوهري التنيسي بارعا في علم الاعتقادات ، متكلما عليها ، وألف في ذلك كتابا عنوانه « الاستبصار » في خمسة أجزاء (31) ؛ ومن فقهاء الاندلس الاصوليين محمد بن أحمد بن رشد المالكي الذي تقدم في الفقه ويعرف الفتوى على مذهب مالك وأصحابه زيادة

---

(24) الصلة ، ج 2 ، ص 471 .
(25) الصلة ، ج 2 ، ص 417 .
(26) الصلة ، ج 2 ، ص 511 .
(27) الصلة ، ج 2 ، ص 447 .
(28) الصلة ، ج 2 ، ص 503 .
(29) الصلة ، ج 2 ، ص 630 .
(30) الصلة ، ج 2 ، ص 579 .
(31) الصلة ، ج 2 ، ص 606 .

على نفاذه فى علم الفرائض والاصول (32) . أما هشام بن أحمد بن هشام الهلالى [444 هـ / 530] فقد كان « من حفاظ الحديث المعتنين » بالتنقير عن معانيه ، واستنباط الفقه منه مع « التقدم فى معرفة أصول الدين » (33) . وكان محمد بن عبد الرحمان بن شبرين ، وهو من مرجيق من غرب الاندلس، عالما بالاصول والفروع (34) مثل محمد بن عبد العزيز بن أبى الخير الانصارى (35) ؛ وبرع هشام بن أحمد بن هشام الكنانى فى أصول الاعتقادات وأصول الفقه وألم بكثير من فتاوى فقهاء الامصار (36) .

ومن المغاربة الذين مروا أو أقاموا بالاندلس مدة وكانوا من المتكلمين محمد بن سعدون بن علي بن بلال القروى المتوفى بأغمات سنة 485 هـ (37) اذ كان من أهل العلم بالاصول والفروع ، وكذلك أبو محمد عبد الله بن حمو ، وأصله من المسيلة [ت 473 هـ] فقد كانت له دراية أيضا بالاصول هذا المنحى ويثبت توفر الجدل وعلم الكلام لديهم وهو ما يخالف ما ذهب اليه

وقد تتعدد أسماء الفقهاء الاندلسيين المتكلمين والملمين بأصول الفقه ؛ ولا شك أن توسيع المسألة على مصادر ومراجع تراجم الفقهاء بالاندلس سيدعم هذا المنحى ويثبت توفر الجدل وعلم الكلام لديهم وهو ما يخالف ما ذهب اليه بعضهم من نفي تام للظاهرة ؛ وقد تكون من أسباب لجوء المالكية خاصة للجدل ونظرهم فى أصول وفروع المسائل الدينية رغبتهم فى الذود عن المالكية وتحصينها من الشبهات وافراز دعائم وجهتها ، لذلك فان هؤلاء الفقهاء لم يخرجوا عن دائرة مذاهبهم الفقهية وخاصة المالكية ، بل بقوا مخلصين لها ، مقترنين بذكرها .

يوسف الخناشي

---

(32) الصلة ، ج 2 ، ص 546 .
(33) الصلة ، ج 2 ، ص 619 .
(34) الصلة ، ج 2 ، ص 538 .
(35) الصلة ، ج 2 ، ص 543 .
(36) الصلة ، ج 2 ص ص 617 ـ 618 .
(37) الصلة ، ج 2 ، ص 570 ، ويذكر القاضى عياض فى « ترتيب المدارك » سنة 486 هـ لتاريخ وفاته .
(38) الصلة ، ج 1 ، ص 287 .

زمن يكبره الأبناء

قصة : عايده عبد الحميد

هو : أدخل فى عينيك يا صغيرة ..
أجمع الأحزان ..
أنزعهـا ..
هم أحرقوك ومروا
جميل هو الحقد
انتظرتك .. انتظرتك من عهد نوح
تعريت .. جعت ..
ولكنني لم أقل كلمة توجعك
وقلت : الذى فات ٠٠ فات ٠٠
وكان زمنا للتشاور ٠٠
قد يفتحون ملفي يا صغيرة ..
قد يعرفون كل شيء ٠٠ وقد ــ عليه ــ يزيدون ؟
ولكنهم ــ أبدا ــ لن يهتدوا إلي
لن يثبتوا انى ارتكبت فى يوم هواك .
وانى اقترفت حبا ..
هم أحرقوك ومروا ٠٠
وما علموا اننى الذى احترقت ..
زمن يتمدد .. يمتد فوق بساتين حقدى ..
ينتظر الانفجار ..

تعريت .. جعت .. أخذت منك الجراحات الكبيرة .
أخذت منك الاحزان وكنت سعيدا ..
أدمنت الحزن فى عينيك ..
جمعت دموعك .. وشربت المأساة لكى اراك سعيدة
مجنون فى الصحراء يدور .. صراخ الوحش منه قريب ..
وصراخ ألانسان كالانسان غريب ..
كل شيء هنا قابل للخديعة ..
نهش الاعراض بكل أشكاله طقس يومى من
طقوس هذه المدينة ..
من بحر القهر ستبرز يوما جزيرة للفرح ..
وسوف يكون بروزها على يد انسان ..
أهداك خير ما عنده .. أهداك القرآن ..
وأهداك قلبه ..

* * *

أخذت مريم غصن الشجرة ..
رسمت خطين ..
خطا لليأس وخطا للأمل
ليس للنار ان تخدع الابرياء
تذوب البحار التى تفصل بين قيس ولبنى ..
تذوب الجبال التى تفصل قيسا عن ليلى ..
وأنا خائف .. خائف الا تذوب البحار التى بينى وبينك ..
خائف الا تأتى بلقيس لأصوغ فى أذنها الأحلام ..
خائف الا ألمس سوى أزهار الخوف والشك المقيت ..
خائف أن تحرمنى الدفء الايام .

* * *

هـي : حين امتزجت خصلات من شعرك بخصلات من شعرى ..

كنا قد محونا أثر البحر الذى كان يفصل بيننا
وفتحنا نافذتى ضحك وسلام .
كنا كطيرين على الغيم شريدين ..
ضاق بهما الافق .. وخافا أعين الاخرين
فاختلطنا ..
كسربين من طير فى الافق اختلطنا ..
مثل توأمين عبر البعد .. كنا نطير ..
وامتزجنا بأشرعة تلوح فى اليم ..
وبشمس .. للشفق تبوح ..
عجزوا عن رصدنا ..
ولم نعجز عن رسم حلم .. حررنا من أثر القيد
حول المعاصم ..
وعانقنا معه نهارا جميلا ..
صاحبنى فيه وجهك .. ظل يراودنى ..
وكدت أشيعه بالزغاريد ..
أعاد إلي الامان .. أمان الطرقات ..
تمنيت لو يتيه العمر فى درب الامان ..
يتمطى عبر السنوات .. يتكنى بالحنان ..
وأن تخلع على جسدى ثوبا ووردا ..
وأن تمضى بى .. الى الحقل نصطاد
فراشات النهار ..

* * *

كنت أرى العمر يمضى وأنا من شرفتى
أمطره دمعا وحزنا ..
ارتحلت يوما بآفاق السماء .. لما التقيتك ..
وحملت معى الشموع من تلك المدينة الحبيبة ..

غنينا لها الحب الكبير وتواعدنا على الوفاء وعلى الا نخون ..
ونعمنا بما يلقى فوقنا ذلك المكان المقدس من نور ..
ورفعنا راية تحت الدخان ..
تغنينا بالامجاد وشاهدنا نقشا على الحيطان جميلا
وقرأنا رسالة الرسول الى المقوقس ..
كنا معا .. وكنت ماسكة بك كما يمسك بالقصبة الغريق ..
كنت أتمنى أن أطوف الكون معك ..
فالسماء معك ما عادت تضيق ..
بى وجد الى ابناء بى يحوطون ..
فيهم لونك العسلى الذى فيه أتيه ..
نصنع لهم عرسا .. ومجدا .. بهم نعلي راياتنا ..
هم منى ومنك .. يضمون اسمى اليك واسمك إلي ..
وبنا يسيرون ..

* * *

كان حلما أسمر فيه جمال الزنوج التعساء ..
حلم لم يكتمل فى خيالى ..
فشاهد الاجهاض فى زمن يكره الابناء ..
تحررت منك قبل ان أتحرر من كل قيد ..
الفيتك ـ فى ذاك اليوم ـ من الغرباء .
يوم الثالث والعشرين رايتك لها وقد غرك الاطار
لو كانت لهم القدرة على ان يجهروا بالحق .. لو ..
وجاهدت السم الباطل ٠٠ وجاهدت كل نار ٠٠
وظل يراودنى وجهك كالقمر فى المحاق ..
وتحملت كل الاثقال ٠٠ أردت فى تلك اللحظة أن أمزق ٠٠
أمزق الخرافة قبل أن يطلع النهار ..

* * *

كنت قد فتحت لى بابا للاسعاف .. مخلوق تعس
صادفته مرة ٠٠ قلت له : أحبك ٠٠ فدعنى أقبل عينيك ٠٠
كانت الخدعة كبيرة .. وكانت النعجة المطمئنة ..
قد تبعت الغريب وقالت : سلاما للخوف والاعصار ٠٠
من يمنعنى سلام التراب وما الذى يجعل الارض
اصغر مما تكون ..

* * *

ليس لى وطن أو صديق ..
الحب ٠٠ الزمن ٠٠ الاهل ٠٠ الارض ٠٠ هراء أشياء لا تعنى شيئا ٠
زهر البرية له شوك يدمى ..
حمامة كئيبة تهرب الى بحر كآبتها .. تكره الطوفان ..
فتعود الى العش البسيط ٠٠ الى القش ٠٠ الى الوادى السحيق ٠٠
كانت ذبيحة الزمان المستحيل فأرادت العودة ..
الى حيث كانت حتى لا تطعنها السيوف ٠٠
وحتى لا ترى وجها يذكرها بجرس المدرسة الحزين ..
بالازهار الذابلة ، بالاعلام المكسرة ، بالكتب الجوفاء ..
بأطفال يقال لهم : أطفال الآخرين .

ـ المنستير فى 31 أكتوبر 1982 ـ

عايـده عبد الحميـد

رسالة المكتبة عبر الأجيال

بقلم : مبارك العمراني

اذا تحدثنا عن المكتبة ورسالتها فانما نتحدث عن عامل من أقوى العوامل التى تبث نور المعرفة بين الاجيال ، فمنذ أقدم العصور وهى تلعب دورها الطليعى كأعظم أداة لتوعية الجماهير والاخذ بيد الافراد الذين يريدون بناء شخصيتهم وكيانهم الثقافى على أساس من الخبرة متين . وقد واكبت المكتبة كل الحضارات التى غيرت مجرى الحياة وتركت للأجيال القادمة أعظم تركة ثقافية يرثها خلف عن سلف .

فالحضارة البونيقية التى شعت انوارها من مدينة قرطاج وغمرت حوض البحر الابيض المتوسط بأجمعه ، وكانت نتيجة أفكار خبرت الدهر ودرست هذا الوجود ثم سجلت كل ذلك فى صحائف بقطع النظر عن المادة التى كتبت بها أو عليها ، لا يزال لها وزنها التاريخى الى اليوم . فكانت المكتبة الشهيرة التى أسست فوق جبال (بيرصة) بقرطاج هى المكان الامين الذى احتضن تلك الافكار وذلك التراث العلمى العظيم الذى لو لم يكن منه الا موسوعة (ماغون) الزراعية لكفاه ذلك فخرا تلك الموسوعة التى نالت اعجاب العالم وترجمها الرومان الى لغتهم وانتقلت الى بيت الحكمة بالقيروان حيث ترجمت الى العربية . كذلك وصلنا من الادب البونيقى رحلة « حنون » الى غربى افريقيا بحرا ورحلة « عماقون » الى انقلترا ، فلولا هذا المكان الامين أو بالاحرى لولا المكتبات التى حفظت لنا أمثال هذه الكنوز لما تحاككت الافكار ولما التقت امواج الحضارات وامتزجت انهارها لتسقى شجرة الانسانية الظمأى الى مثل هذه المياه المنعشة .

واذا كانت الحضارة الفكرية اليونانية هى المنبع الفياض الذى اغترف منه العالم بأسره مما جعل مبادىء الفلسفة وأصول الثقافة لا تزال ترتكز على

أفكار علماء وفلاسفة ذلك الزمان من أمثال سقراط وأرسطو وأفلاطون ، فان هذه الافكار لا يمكن ان يكتب لها الوصول والانتشار لو لم تـدون فى كتب وتحفظها المكتبات . حينئذ فالمكتبة كانت ولا تزال جزءا لا يتجزأ من تاريخ البشرية وعاملا هاما فى تطور المجتمع الانسانى ويقع عليها عبء كبير يلزمها القيام به فى البيئة المحلية التى توجد بها وفى حياة الامة ثم الانسانية قاطبة.

وكلنا يعلم الدور الذى لعبته مكتبة الاسكندرية فى عصور ما قبل المسيح هذه المكتبة التى كانت تحوي ما يقرب من 700 ألف مجلد والتى أسست فى أوائل القرن الثالث ق. م. فى عهد « بطليموس » الاول وكانت الى جانب ذلك معهدا علميا انجب علماء لهم وزنهم ومكانتهم فى التاريخ من أمثال « ارشميدس » صاحب الافكار والنظريات الشهيرة و « جالينوس » الطبيب الذى يلقبه العرب بالرجل الفاضل لما اشتهر به من علم وفضل و « هيرون » العالم الاسكندرى الذى كان أول القائلين بنظرية الصواريخ التى تطورت مع الزمان حتى صارت معجزة هذا العصر .

واذا كانت هناك بعض المكتبات الاشورية والمصرية القديمة فان لمكتبة الاسكندرية مكانتها العالمية نظرا لرصيدها العظيم من الكتب ولميزتها الخاصة وهى : أن كتاباتها كانت على أوراق البردى بينما المكتبات الاولى كانت على قوالب الطين .

ولقد تعرضت مكتبة الاسكندرية فى سنة 47 ق. م. الى حريق هائل حيث ثارت الاسكندرية على قيصر وحوصر بها فكان هذا الاحراق أعظم نكبة أصابت العالم ونزلت بمعنوياته الى الحضيض .

وعندما فتح العرب مصر وتم جلاء البيزنطيين عنها وضعوا أيديهم على مكتبة الاسكندرية ولم يجدوا بها الا بقية من كتب المهاترات الدينية المكتوبة باليونانية . وكانت أبغض ما تكون عند الاقباط الذين قاسوا الويلات من حكم البيزنطيين فتشوقوا للقضاء عليها وبذلك لم ير المقوقس وأصحابه بأسا فى حرق بقيتها وتوزيعها على حمامات الاسكندرية كطعام للنيران .

أما أولائك المتعصبون الذين يمقتون العرب والاسلام من أمثال القس أبى الفرج المالطى والذين يريدون اظهار العرب فى مظهر البرابرة المتوحشين فقد نقلوا رواية مكذوبة تقول : ان عمرو بن العاص هو الذى أحرق المكتبة بأمر من عمر بن الخطاب ، وهو قول سخيف لم يقم عليه دليل .

كذلك اشتهرت مكتبة « برجامون » بآسيا الصغرى التى انشأها (أمينيس) الثانى فى أواسط القرن الثانى قبل المسيح كى تنافس مكتبة الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمان وقد حاول « بطليموس » عرقلة مشروع (أمينيس) فمنع تصدير البردى من مصر ولكن « أمينيس » التجأ الى جلود الضان والماعز لاستعمالها فى الكتابة فنجح فى ذلك الى أبعد الحدود.

واشتهرت أيضا دار العلم أو « بيتَ الحكمة » التى أسسها هارون الرشيد واعتنى بها المأمون من بعده ، فكانت مصدر اشعاع فكرى غمر كل نواحى العالم العربى ، وهى الى جانب كونها مكتبة هى معهد علمى انطلقت منه حركة شاملة للترجمة والتأليف والنشر مما جعل ذلك العصر من أزهى العصور التى بلغت فيها الحضارة الاسلامية قمة مجدها فى جميع ميادين الحياة كذلك اشتهرت « بيت الحكمة » بالقيروان شهرة واسعة بما كانت تحويه بين جوانحها من تراث هو خلاصة كل ما خلفته الحضارات السابقة ، وأعظم ثروة جادت بها قرائح أهل ذلك العصر ، وهى جامعة تدرس فيها كل العلوم الحية كالهندسة والطب والفلك والرياضيات ، وهى بيت لترجمة الكتب الاجنبية خصوصا عن اللغة اليونانية والبربرية ، وهى مقام للعلماء يجدون فيه المآكل الفاخرة والمرافق اللازمة للترجمة والتأليف ، وحتى لا يشغلهم أى شاغل عن البحث والدرس .

وقد تخرج من هذا البيت أطباء كبار من أشهرهم أحمد ابن الجزار ومترجمون عظماء نقلوا التراث العربى الى اللاطينية أمثال : قسطنطين الافريقى الذى اشتهر بهذا الاسم عند الاوربيين . وقد أسس هذا البيت أحد ملوك الاغالبة وهو « ابراهيم الاصغر » فى أواخر القرن الثالث الهجرى فكانت أجمل مثال لما ينبغى أن تكون عليه المكتبات . ومن هنا نستنتج ما هى رسالة المكتبة وما هو الدور الذى لعبته ولا تزال تلعبه فى تغذية العقول ، وكيف أنها سايرت كل الحضارات فى مختلف العصور والازمان .

ولقد سارت المكتبات فى تونس على سنة التطور حتى أصبحت على ما هى عليه الآن من التأثير الفعال على مجرى الثقافة فى البلاد .

ففى العصور القديمة كانت المكتبات التونسية غير مستقلة بنفسها بل نجدها فى الاربضة عبارة عن مصطبة بها طاقات ، أو كوى فى الحائط توضع فيها الكتب . وفى الجوامع مثل مكتبة جامع الزيتونة وجامع القيروان وسوسة

وصفاقس الخ ... بحيث تتفاوت اهميتها بحسب ما تحويه من ذخيرة ثم تتوالى السنون وتزدهر المكتبة الوطنية التونسية التى اصبحت تضم كل المصادر القومية والعالمية زيادة عما تختص به من التبادل الثقافى بينها وبين المكتبات العالمية الكبرى ، ومن حق الايداع القانونى ..

ثم تأسست المكتبة المركزية التى قوي رصيدها بعد الاستقلال وأصبحت تمول جميع المكتبات العامة ، واستبدل اسمها فأصبحت تسمى بمركز تزويد المكتبات العامة، ثم بالمركزية الفنية. ولقد كانت المكتبات العامة قبل الاستقلال تعد على الاصابع مقتصرة على العاصمة وضواحيها يؤمها أفراد قلائل من المحظوظين أما بقية أفراد الشعب التونسى المنتشرين فى كل انحاء البلاد وقتئذ فلا يهم السلطة الاستعمارية الحاكمة من انارة عقولهم شيئا . خصوصا وهى تعتقد ان هذه الانارة وهذا التثقيف يرجع عليها بالوبال حين تتفتح الاذهان وينكشف الغطاء عن أساليب الاستعباد والاستغلال البشعة التى تسلكها ، فتكون الثورة التى تأتى على هذه الاساليب الملتوية من الاستثمار .

وعندما بزغ فجر الاستقلال انحسرت تلك الغيوم من الجهل والانحطاط المتلبدة فى سماء البلاد ، وعمل الحزب والدولة التونسية على تنوير الاذهان ونشر الثقافة خصوصا بواسطة المكتبات العامة التى تطورت بسرعة مذهلة سواء من حيث العدد أو الرصيد أو النوع أو عدد القراء والمشتركين حتى عمت كل نواحى الجمهورية،زيادة عن حيوية ونشاط البلديات والمنظمات القومية فى هذا الميدان ، وزيادة عن المكتبات المتنقلة التى أصبحت تجوب القرى والمداشر والارياف التونسية لتوصل الكتاب الى كل مواطن مهما بعدت به الدار .

وبفضل ما تحويه المكتبات العمومية من الكتب المتنوعة المواضيع وبما يرد عليها من المجلات والنشريات والصحف التى تعبر عن الحياة اليومية لعبت دورها الفعال فى توعية المواطنين وتنوير عقولهم ، خصوصا وأن طريقة الاتصال المباشر هىالمستعملة فى هذه المكتبات حيث أن المطالع يتصل مباشرة بالكتاب الذى يريد قراءته ويبحث عنه فى الرفوف مستعينا بالجذاذات والفهارس وبالعناوين التى يجدها على الرفوف وبالعلامات ذات الالوان المختلفة باختلاف المواضيع .

غير أن المكتبة التى تريد لنفسها النجاح فى مهمتها لا بد ان تراعى فى اختيار الكتب رغبات وميول قرائها ومحبيها بحيث تشبع هذه الكتب نهمهم

وتناسب ميولهم التى تختلف باختلاف مهنهم واتجاهاتهم فهناك الفلاح والتاجر والمهندس والطالب والمعلم وهناك من يميل الى التاريخ وآخر الى الفلسفة وغيره الى علم الاجتماع او الآداب فلا بد اذن للمكتبة أن تشبع رغبات كل هؤلاء كما يمكنها أن لا تقتصر على نشر الثقافة بواسطة الكتاب فقط بل تنطلق منه الى القيام بأنشطة ثقافية أخرى لتحريكها واخراجها من «الروتين» سيما اذا توفرت لها الامكانيات المادية والادبية للقيام بتلك الانشطة مثل المنابر الحرة والندوات الثقافية ومعارض الكتب الخ ...

ومن هنا لا بد من مراعاة المكان المناسب الذى توجد به المكتبة واستغلال مساحتها بحيث تقدم أكبر قدر ممكن من الخدمات ، مع بعدها عن الضوضاء والتشويش الذى يحرم القارىء من الفهم ومن تلك المتعة التى يجدها وهو يناجي كتابه فى هدوء وسكون سيما ونحن نسعى بكل ما لدينا من جهد لنوفر له الاشياء الضرورية لراحته حين الدرس والاطلاع وبالتالى فلا بد أن يكون مبنى المكتبة جذابا أنيقا يحث الجمهور على الذهاب اليه وجديرا بأن يعمل على زيادة النمو الثقافى والفني والجمالى لرواده .

ومن جهة أخرى فلا بد أن تحوى المكتبة زيادة عن التراث القديم تلك الكتب التى تقوم على تبسيط المعرفة ونشرها على نطاق واسع دون تعقيد بما تثيره من تطلع نحو آفاق وتصورات جديدة ، وبما تعبر عنه من واقع الحياة الحاضرة بحركتها الدائبة وتفاعلاتها فى موضوعية وأمل .

وبما ان المصانع والمعامل لا تزدهر الا بمقدار ما يقدم لها من مواد خام ومن مسيرين أكفاء فكذلك القواميس الجيدة ودوائر المعارف والبحوث والدراسات الاساسية والمصادر الرئيسية للفكر الانسانى فى تطوره ومعالم الابداع والتحول الثقافى فى تراثنا الوطنى كلها مواد خام تمثل قاعدة من قواعد الانتاج الفكرى . وينبغى ان تحتل مكانها فى رفوف المكتبات كمنارة يهتدى بها كل من ضل الطريق والتبست عليه السبل .

واذا كانت مكتباتنا العامة فى أشد الحاجة الى ما يعالج مسائلنا الفكرية وقضايانا الاجتماعية معالجة ناجعة فان الضرورة تدعو مفكرينا وأدباءنا الى الاهتمام بهذا المنهج فى الانتاج الفكرى لينجح مخططنا الذى تقوم عليه ثقافتنا القومية المتجددة بتجدد الظروف والازمان .

وغني عن القول بأن بعض المفكرين التونسيين قد بدأوا يسيرون في هذا الاتجاه مما يبشر بكل خير ، ويبعث الاطمئنان على مستقبل الثقافة في هـذه البلاد . فما علينا الا ان نطلع بكل شغف على انتاجنـا التـونسى ونشجـع اخواننا من المفكرين والادباء لان الوطنى الصادق هو من يبتعـد عن نفسيـة الشعور بالنقص ازاء كل ما تنتجـه الادمغـة التـونسية ويقلـع عن الازدراء والتحقير لكل ما هو تونسى .

لان من واجبنا الايمان بأن عقول التونسيين ليست فى طبيعـة تركيبهـا أحط مستوى من عقول بعض المشارقة او الاوربيين فهى قـادرة على الخلـق والابداع اذا وجدت التشجيع المادى والادبى ، وابـرز دليـل على ذلك هـذه البراعم التى تفتحت وفاح عبيرها بعد الاستقلال وبعد ان كانت ذابلة ملتوية فى عهد الظلمة والاستعمار .

فالكتاب اذن هو السفير الحقيقى بين الامم وهو الذى ائتمنته الاجيال على اسرارها وكنوز أفكارها كى يبوح بها لرواد المعرفة فى كـل العصـور حتى يستخلصوا العبر والدروس ويطلعوا على الاسباب التى نهضت بهـا الامـم وارتقت والعوامل التى بها تقهقرت وانحطت فيأخذوا بالاولى ويبتعـدوا عـن الثانية . وكثير من العظماء الذين غيروا مجرى التاريخ ورفعتهـم مكـانتهم العلمية والادبية فوق عواتق الاجيال . كانوا أصدقـاء أوفيـاء للكتب وكـانت أسعد أوقاتهم تلك التى يقضونها فى البحث والاطلاع بينما تضيـع أعمـار البعض من كهولنا وشبابنا فى اللهو والعبث مقتصـرين على اشبـاع نهمهـم الجسمى تاركين عقولهم تشكو الجوع والفراغ . لاننا نعتقد ان العقل الـذى يحرم من الغذاء الروحى الضرورى اللازم لنموه هو من غير شك لا يقدر على التحليل والتعمـق وسيبقى عاجـزا امـام ابسط المشاكـل التى تعتـرضه ـ خصوصا ـ فى هذا العصر الذى يشكو فقدان الاستقرار وتتعقد مشاكله يوما بعد يوم .

واذا كانت فكرة العدالة الاجتماعية والمحافظة على الوحـدة القـومية التى ينادى بها الرئيس الجليل فى عديد المناسبات لا تتحقق بأتم معنى الكلمة الا بفضل المعرفة والثقافة والقضاء نهائيا على آفة الجهل ادركنا الدور الرئيسى الذى تقوم به الكتب والنشريات والصحف والمجلات فى هذا الميدان حيث انها توسع افق تفكير المواطن وتفتح بصره على العالم الخارجي وتجعله مدركا لما له وما عليه ، وبذلك يؤمن بأن طريق الوحدة القومية والعـدالة الاجتماعيه هى اسلم طريق توصلنا الى هدفنا فى الرفاهية والمناعة والازدهار .

وإذا كان المولى سبحانه وتعالى قد شرف الانسان بالعقل ورفعه بفضله عن بقية السوائم فلا يفهم منه انه ذلك العقل الفطرى المتحجر بل العقل النامى المتطور الذى يحن صاحبه الى الاطلاع واكتشاف المجهول من مهده الى لحده .

وهكذا تتضح لنا الرسالة العظمى التى تقوم بها المكتبات فى خلق جيل متطور قادر على حل كل المشاكل التى تعترضه فى صراعه مع الحياة .

واذا كانت المبادىء الاسلامية التى سارت فى العالم مسير القمر باشراقه قد استندت فى هذا السير الى كتاب مقدس هو « القرآن » ادركنا مدى الدور الذى تقوم به للانسانية هذه التحف التى تحويها المكتبات .

وظيفة أمين المكتبة :

أول ما يفكر فيه أمين المكتبة هو ان يجعل رصيد مكتبته أى الكتب والمجلات والنشريات والخرائط والوثائق التاريخية فى متناول القراء ومحبى المعرفة ، وهذا يتطلب منه سعة الاطلاع او على الاقل الالمام بما تحويه مكتبته من كنوز حتى يتمكن من التوفيق بين خدمات المكتبة ومطالب الجمهور باعتبار ان رواد المكتبة تختلف ميولهم ورغباتهم ومستوياتهم الثقافية كما تختلف مهنهم وعقائدهم واجناسهم ولا بد لامين المكتبة من ان يبنى رصيد مكتبته على هذا الاساس حتى يشبع كل الرغبات ويلبى كل الطلبات ، وكذلك يساعد القراء على الاهتداء الى احسن الكتب وادق المعلومات التى تثير اهتمامهم ، ويحاول استمالتهم الى تذوق المطالعة لانه يؤمن ان المكتبة معهد للبحث الحر ، ومركز للثقافة الفردية ووسيلة يستطيع كل انسان عن طريقها ان يكون نفسه بواسطة البحث الشخصى والمقارنة العادلة النزيهة ، كما يؤمن بأن امكانيات المكتبة فى هذه الناحية لا تجاريها فيها اية مؤسسة اخرى ، فالطفل والشاب والراشد والعامل والعالم ورجل الاعمال والمؤمن والجاحد ، والغني والفقير والمستهتر بالعادات والمتحرر منها ، كل هؤلاء يترددون على المكتبة فيحصلون كل حسب هواه على ما ينشدون من الاطلاع والثقافة والتسلية .

اذن المكتبات ليست ببنائها الشامخ المضيء ورفوفها الجذابة وكراسيها المريحة فقط، فوراء كل ذلك عمل شاق مضن يتطلب مزيد الاخلاص والتضحية، ولا يكفى ان يميل الامين الى الكتب ويقبل على قراءتها حتى نقول : إنه مهيأ لهذه المهنة الجليلة فأمين المكتبة لا يعمل فى مكتبته ليقرأ هو وانما يعمل ليقرب سبل القراءة للرواد الذين يأتونه طالبين العون والمشورة ، فاذا تصور ان أمامه طائفة من الكتب الكبيرة وانه يحب القراءة فهو مخطىء فى تصور مهنة

الاشراف على الكتب ، وعليه اذا اختار هذه المهنة أن يقرأ لنفسه خارج المكتبة ، واما فى المكتبة فوقته كله فى خدمة الرواد .

ومن الخطا القول بأن فن المكتبات والاشراف عليها سهل ويمكن اسناده لاى شخص بل ان هذا الفن يحتاج الى كثير من المواهب الطبيعية كما يحتاج الى درس ومران طويل حتى يكون الحكم صحيحا على الكتاب ويقدر حق قدره . فهناك كتب هامة وأساسية وتعتبر معالم فى الميدان الذى ألفت فيه ، وهناك كتب تلائم النشء واخرى تلائم المختصين ، وكتب تلائم العمليين وأخرى تناسب الخياليين فى نفس الفن والموضوع . ومهمة أمين المكتبة هى : أن يعطى الكتاب الملائم فى الوقت المناسب للقارىء الذى يطلب عونه وارشاده، ولذا فلا يكفى ان ترتب الكتب حسب العلوم والفنون ولا حسب المواضيع أو المؤلفين فكثير منها متداخل متشابك ، والمعارف كل متماسك يتلاقح مع بعضها البعض فى نقط متعددة .

فكيف اذن ترتب رفوف المكتبات ؟ وماذا يوضع عليها ؟ وهذا الكتاب مفيد ولكن القراء لا يقبلون عليه ، فما السبب ؟ وهل يمكن معالجته ؟ وهل يساعد عرض الكتاب على جلب الانظار اليه ؟ وهل جعل برنامج خاص بموضوعه يدفعه الى ايدى القراء فيستفيدون منه ؟

كل هذه الاسئلة سوف تدور فى ذهن الامين اليقظ الذى يعرف ان رسالة المكتبات لا تقل خطورة وأهمية عن رسالة المدارس والجامعات . انها رسالة نشر الثقافة الحرة الشاملة .

حينئذ فوسائل عرض الكتاب فن .. ووسائل الترغيب فى القراءة فن ، والتعامل مع رواد المكتبات على اختلاف ميولهم ورغباتهم فن . وكل هذا يحتاج الى وقت طويل ومران شاق ، وموهبة أساسية هى :

حب الكتب والطرب لرؤية الناس ينتفعون بها ، واللذة لسماعهم يتناقشون حولها . فاذا آنس شخص ما فى نفسه كل هذه الصفات فليكن أمينا لمكتبة وليقبل بكل جوارحه على دراسة فن المكتبات .

والامين الذى يريد النجاح لمكتبته ربما تساءل : ما السبيل الى تشويق الناس الى القراءة ؟ وما السبيل الى ايقاظ غريزة حب الاطلاع فيهم ؟ حيث نامت عند البعض منهم ؟ والجواب هو :

الارشاد الرفيق اللطيف والوصية الابدية الدائمة : ألا يكون هناك ارغام على القراءة فالجسم بحاجة الى الطعام شديدة لكننا اذا ارغمناه على طعام زهده.

والمطالع اذا قدمنا له الشهي من القراءة وعرفناه مزاياها وتركناه وحده يدع ما يدع ويختار ما يختار فاننا نكون كمن يعرض الطعام على جائع في ابهج شكل فيقبل عليه متشوقا مندفعا ملتهما التهاما فيطلب منه حينئذ التمهل قائلين له : أن ذلك الطعام على لذته عسير الهضم ولا بد من مضغه جيدا كي لا ينقلب نفعه الى ضرر .

مبارك العمراني

مصادر البحث :

1 ـ مدنية المغرب العربي في التاريخ ـ تأليف : أحمد صفر ـ دار النشر بوسلامة ـ تونس ـ ج : 1 ـ 1959 .

2 ـ ورقات عن الحضارة العربية فى افريقيا التونسية ـ تأليف : حسن حسنى عبد الوهاب ـ القسم الاول ـ مكتبة المنار ـ تونس 1964 .

3 ـ خلاصة تاريخ تونس ـ تأليف : حسن حسنى عبد الوهاب ـ ط : 3 ـ منقحة ومصححة ـ دار الكتب العربية الشرقية ـ تونس .

4 ـ المكتبات العامة تبسيطها وتوسيع نطاقها ـ تأليف : ليونل ر. كولفيق ـ دار المعارف بمصر .

5 ـ تعليم فن المكتبات ـ تأليف : ج. بريام ـ دانتون ـ العدد الاول من سلسلة الينسكو عن المكتبات العامة ـ باريس 1980 .

6 ـ العالم بين دفتي كتاب لعدة مؤلفين ـ جمعه وحرره الفريد تشيفورد ـ ترجمته بتصرف واضافت اليه الدكتورة سهير القلماوى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة 1956 .

7 ـ المحاسن والاضداد ـ تأليف : عمرو بن بحر الجاحظ ـ الشركة اللبنانية للكتاب وللطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت 1969 .

8 ـ تنظيم المكتبة المدرسية ـ تأليف : ماهر حمادة وعلي القاسمي ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط : 2 .

9 ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ تأليف : جرجي زيدان ـ ج : 4 ـ دار الهلال .

10 ـ تيسير القراءة ـ تأليف : بو ريني ـ ترجمة : سامي راشد ـ اشراف وتقديم : الدكتور عبد العزيز القوصي ـ مكتبة النهضة المصرية 1960 . (كيف نفهم الاطفال ؟) سلسلة : دراسات سكلوجية (37) .

الضوء المسيّج بالغبار

شعر: الصادق شرف
(د. ابو وجدان)

للقادمينَ الليلُ أضواني على صَهَوَاتِ غيم الإنتِشارْ ...
يتأرجَحُ الفرسانُ عندَ هبوبِهَا ،
بين التوثُّبِ والفرارْ ..
ويهيبُ بي الزّمنُ المسيَّجُ بالصّهيل توغُّلاً ..
في الانفجارْ ..
لألملم الآفاق .. أخصبُهَا ..
أواني للرّذاذ بلا إطار
الرعد رَنَّاتُ الأواني ..
البرقُ مُنْكَسِرٌ على البِلاّرْ
تَتَدَفّقُ الرّنَاتُ بينَ أحِبَّتِي
لا يستَتِبُّ لنا قرارْ ..
نُضْوِي الرنينَ وَلا ..
نَسُوسُ الطالعينَ منَ الغُبارِ بلاَ حِوارْ ،
لاَ يلْمَعُ الضوءُ المسيَّجُ بالضياء ..
ويلمعُ الضوء المسيَّجُ بالغُبارْ .
طَلَعَ الغُبَارُ مُطَهَّماً ..

بسنابِكِ الدّهـاءِ .. أعينُهـا ..
بيـاضٌ في احْمِرَارْ .
وَعلى هضَاب العُمْرِ أمْطَرَني ..
الأحبّةُ بالهُرُوبِ المستعـارْ
تركـوا الشّـوَاطِئَ ، أوْغلـوا ..
في خيمةِ الخِصْبِ المشجَّرِ بالقفـارْ
أستصرخُ العشاقَ .. مِنْ نَفَقٍ ..
إلى نفقٍ ..
يجرْجرُنا القطارْ
ودروبُ منْ عشِقُوا ..
مرصعةٌ ..
بما قدْ هشمُوه مِنَ الجرارْ
من جرّة قدْ أوْغلُوا في جرّةٍ ..
جَـارٌ بهِمْ يفْضِي ..
إلى تاريخِ جَـارْ ؛
مـا مَرّروا التاريخَ منْ أعناقهِ ..
بل مَرّغوا الأعنـاقَ منْ غـار لغارْ ؛
تتَزَنْزَنُ الدُورُ الفسيحةُ بغْتَـةً ..
مـادامَ يسْلمنا الجِدَارُ إلى جدَارْ .
ما للبراعِمِ حوصرتْ !؟
منْ داخِلِ الأكمامِ ينهزمُ الحِصَارْ ..
في الحصْرِ بـاتَ النّصْرُ يحلمُ بالصّغَارِ ..
وكيف يجْهضُهُ الكبـارْ !

ممهـورةٌ أحلامُنَـا ..
بالفتْحِ .. إنّ الفتْحَ لا يلغِي ..
سـواه الجفنَ .. يـاكلّ الصغـارْ !
مَنْ كحّلُـوا بالنظرةِ الأخْرَى العيـونَ ..
ولاعُيُــونَ ..
لمن أطـالَ الانتظـارْ .
فَهَلُمّ يا حُلْمَ الزهورِ ، منَ التفتّقِ كمْ ..
يفـاجِئُنَـا اخضرارْ !؟
مـا اخْضَرّ عودُ النّعْشِ .. بلْ
يخضرّ شبْرُ الحُلْمِ بعدَ الإصفرارْ
الفجْرُ أسرَجْنـاهُ مِنْ ..
ألقِ الظـلامِ ، وليسَ مِنْ
ألقِ النّهارْ .
وتمرْوَدَ الليلُ الكحيلُ .. وكنتَ يـا
ألقَ النهـارِ العينَ وهْوَ لكَ احورارْ .
صَدَمـاتُ هوْلِ الليلِ تنشُرُنَـا ..
لتجمعنـا المسافـاتُ الكِبـارْ ..
مجموعـةٌ صدمـاتُنـا ..
تنمُو رَصيداً في صناديق ادّكارْ
يربو الرصيد الفـائضُ المهزومُ في
عُنُـقِ القِصَـارْ
الفيضُ يهزمُ للجنـاح الخيطَ حين يمدّهُ ..
قوْسـاً ..

على أفقِ المَسَارْ ؛
ها الخيطُ فِي الإبهامِ مشدُودٌ ..
وها باقِي الأصابعِ لمْ تزلْ ..
قِطَعًا غيارْ
هلْ يصنعُ الإبهامُ تغييرًا ؟.
وليس له خواتِمُ فِي الأصابعِ لا تدَارْ !
وَشمُ التوغُّلِ فِي التحولِ ظلَّ عشقًا وارفًا ..
وتحزّبي مشمومُ فُلّ ..
فِي اليمينِ إلى اليسارْ .
فِي الحالتين أنا الهزارْ ؛
الحالتان كلاهما تستنفرَانِ الجلنارْ .
فِي النار محترقِي وخارجها مَنِ المحروقُ ؟
قيل :
— « حذَارِ بعضُ الدفْءِ عَارْ !! »
فبكيتُ ملْءَ فصاحتِي ضَحِكًا ..
وقلتُ :
— « أليسَ بعضُ البردِ نارْ !؟ »
وَظَلَلْتُ أوغِلُ خارجًا ..
وأعودُ أخرُجُ والجًا ..
ليظلَّ عندِي أشرسُ الأعداءِ بنْجَ الانتظارْ
لا يلمع الضوءُ المتوّجُ بالنَّهارِ .
ويلمعُ الضوءُ المسيّجُ بالغبارْ .

منزل تميم : 1983/8/15
الصادق شرف

البـــدلـة ..

قصة : التابعي الأخضر

كان يمر قصدا من هناك • ليتوقف طويلا أمام الواجهة البلوريـة • فقـد الزم نفسه بهذا المرور والتوقف فكانه يؤدى مفروضا • يقف امام الواجهة ينظر بتغزل لتلك البدلة المعروضة فى تغنيج مباح •

كانت البدلة من النوع الرفيع حقا فحتى الازرار من نـوع ممتـاز • واذن المنديل الابيض التى تطل من جيب الصدارة هى أيضا تمثل نوعا من الاغراء المحبب الى النفس وقد ألصقت بذلك الجيب صورة مرصعة بالالـوان يقـف عليها فى خيلاء ديك ركز رجلا ورفع الاخرى فكأنه يسيـر واثقـا الى موعـد جمـال . كان يقـف هنـاك ليعـانـق نظـره البـدلـة . فيتقمصهـا فى باطنه وهو يسير متبرجا فى ازقة القرية وأعين الفلاحين تلاحقه والسنتهم تتقول فيمر كل كلام حسن وثناء رفيع فى ظنه حتى الشارة سوف يقـولـون عنها «انها من تلك التى يضعها اصحاب الرتب ممن يحكمون الناس» • فمـا اسعد ان يرى الانسان امانية مجسمه وقريبة منه • فقط يجب حذق السبـل لتناولها • كان يسير فى زحمة الشارع ويظن نفسه وحيدا مع افكاره • فغدا سوف يقتحم المغازة ويسأل عن ثمنها • وليكن •• فسوف احصل عليها وادفع ثمنها مهما كان مرتفعا •

ها هى تتجول فى قريته بكل هذا الوقار • ترفع من قدره فى أعين اهليها سينتسب بها أعلى المراكز • ولن يكون كما هو عامل بناء فى حضيرة ينزف العرق ويتعامل مع الشقاء والاخطار . فحياته يتوعدها الموت على كل هفـوة خاطئة • وسوف يمر امام كل نساء القرية وفتياتها وقد جمعهن عرس ابن عمته • وسيقولون عنه «انه صار شيئا مرئيا» •

وافاق على صدمة تلقاها من عابر سبيل ـ لعله يساير افكارا كالتى راودته وقد تكون فى الجانب الآخر يعتمها الظلام ٠

ـ الاعمى انت ؟ أفلا تبصر حتى الاشياء البارزة ؟

ـ عفوا فقد كنت فى غيبوبة ... وقاطعه الرجل :

ـ تعلم المشى وانت فى حالة صحو ٠ واذا استعصى عليك السير فى المدينة فلماذا التهجم ؟ عد من حيث أتيت وحيث تعرف الطرقات اقدامك !٠

ـ معك حق . فواجبنا ان نفعل ذلك لنؤمن سير الناس وسلامتهم . كان البيت الذى ياويه رفقة تربه وابن قريته غرفة فى الطابق الذى تحت السماء مباشرة ٠ هجرها اهلها واهملوها لبعدها عن الارض ٠ ولذلك يجد نفسه اذا وصلها فى حاجة الى الراحة يسترد فيها انفاسه ٠٠ فما ان دخل يلهث ٠ ووجهه تغطيه الالوان ٠ الزرقاء ، والصفراء ، ثم الابيضاض وضع الخبزة وقت السجق حتى تمدد فوق ارضيتها كعادته ٠ ثم شرعا فى اعداد العشاء ٠

كان التنور يشخر ٠ وطقطقة الزيت ودخانه يتصاعد من القدر ٠ امتدت يد عثمان بالسكين تعمل فى البصل وقد فاحت روائحه فادمعت عينيه فمن يراه يحسب انه يبكى بلوعة ٠ وما ان انتهى حتى مسح بكمه على عينيه التى ما زال يراودهما الدمع وسأله رفيقه الذى كان منهمكا فى معالجة السجق ٠

ـ هل رايتها اليوم ؟

ـ طبعا نعم ٠ فانا لا اقدر ان امر عليها دون الوقوف والنظر اليها ٠

ـ ولكنك لم تحدثنى يوما عما يدور بينكما ٠

ـ ما يدور بيننا لن يفهمه غيرى . ويا ليتها كانت تفهم اذن !

وانت هل رايتها اليوم ٠

ـ لقد كانت رائعة ليلة الامس ٠ فقد فتحت لى باب مشاعرها مما يجعل كل امل مهما كان كبيرا سهل الا جتياز ٠

ـ هنيئا لك ٠ ولكنى احسدك على صبرك ٠ تقف الساعات الطويلة كل ليلة تتحدث اليها ٠ فماذا يبقى لك ان تقول فى غد والذى يليه ؟

ـ كما تتحدث انت الى صاحبتك ٠ وانه لحديث الحب ٠

ـ مع صاحبتي انا حكاية أخرى . انه غزل العيون . فحديثي الى الآن لم يتجاوز نفسي .

ـ حديث الحب يا صديقي لا ينتهي لانه كخيوط الشمس . لن تقدر على الامساك بها ولا احصائها .

واذا ما انتهى الحديث فقد مات الحب .

ـ يا ليتني أقدر على التحدث اليها يوما وفي المكان الذي أريد !

وانحنى على حقيبة يخرج منها ملابس قديمة يتثبت منها ويتفحصها ثم يقتطع من أحدها خرقة يمررها على عينيه ووجهه ثم يمسح بها يديه . وما يزال الدمع من عينيه يتقاطر .

كانا متمددين في وضع متقابل على ما تعمدا تسميته فراشا صامتين فقد ارهقتهما السباحة في بحيرات المستقبل . ووعورة الخوض في اوحال حاضرهما فاستسلم كل منهما يعالج احلام اليقظة فعلى هدهدتها ينامان . وسمعا خشخشة تعوداها ويعرفان مصدرها قال عثمان : سأخصص يوم عمل مجانا من اجل الفتك بهذه العائلة الفئرانية . والا فستجور علينا وتقتحم اجسامنا في ليلة ما ! انه لعجب ان تلجأ الى غرفة ليس فيها غير غلب الكرتون والاسمال . افما كان اجدى لها ان تسكن تلك البيوتات التي يرمي اهلها الاقوات الشهية في الفواضل .

ـ ارجوك لا تفعل ـ قال صديقه ـ واردف : فمن يجير الفقير غير الفقير .

ـ وضحك حتى ردد البيت الصدى ـ صدقني يا عثمان يا اخي اني ازعم لدى اهل خطيبتي ان لي عائلة وبيتا وانما اقصد عائلة الفئران . وحتى لو اقسمت على ذلك اكون من الصادقين .

وضحك عثمان يظنها نكتة ودعابة عرف بها صديقه .

ـ يلزمك بدلة لكبيرها يوم خطوبتك وانت تقدم ابناك الفأر للاصهار . وضحكا معا . وبعدها لم يعد يسمع غير الشخير المتقطع . ظل عثمان يتململ على فراشه يحاول مغالبة النوم حتى يتمكن من متابعة احلامه التي يصنعها بارادته . فقد جرته الى الواجهة التي تتجلى فيها البدلة يداعبها بنظره . ترى كم ثمنها ؟. لدى الآن كذا دينارا ... ، ساقتطع من قوتي . وثمن السجاير والقهوة ثم ماذا؟، لا هذا حساب خاطىء سوف احسب بالزمن. فاضرب الشهور الفاصلة لعرس ابن عمتي في حصيلة ما اتقاضى . ما قيمة الشهر من الحرمان المؤكد في سبيل العودة الى القرية بهيئة المحترمين . وها انا اعيش الحرمان

المشاع • وما سمعنا ان احدا مات بهذا الداء • سوف اتحصن بالشجاعة وغدا اقتحم حصنها وادفع لصاحبها مسبق الثمن ليكون كالعربون ليبقى عليها ففى الناس عيون وفى جيوبهم النقود .

وبعدها لم يعد يسمع غير شخير متناوب •

عاد عثمان لتوه من العمل • وليس فى نيته ان يأكل شيئا • بدليل انه عاد وليس فى يده الخبز . يكفيه الليلة انه عاد باجرته وانه سيجرى المعادلة . اغلق الباب باحكام وادخل يده يتحسس ما تحت الفراش •• ثم كرر التحسس فلعل بعض الاوراق والدنانير النحاسية حثلت • وشرع يحصيها عدا ثم ضمها بعناية وحذر الى جيب داخلى يفضى مباشرة الى صدره . وقام يترنح وهو يكاد يرقص غدا اضمك ايتها العصية فابثك كل اشواقى واسمعك حلو العتاب • ونظر الى كل ارجاء الغرفة يبحث عن مكان لائق تتصدره . واوعزت له نفسه بتنظيف الغرفة وابعاد هاته الاشياء الحقيرة • المشبوه فى انتسابها الى الحقارة وشرع من حينه فى العمل • وحين شرع فى ازالة الركام التى تصدر عنه خشخشة الفيران تكلم بصوت مسموع :

والآن حان وقت التنفيذ يا عائلة رفيقى المحترمة • لسوف ارمى بك الى الشارع فقط • ولن يصيبك منى سوء • وكان بودى ان لا افعل ذلك ولكن ما الحيلة وفى طبيعتك الافساد • فمن يضمن لى انك لن تقرضى باسنانك الخبيثة البدلة ، فتاتين على الامل والجهد ••••• ، ولما طرق رفيقه الباب وفتحه له وجد وجه الغرفة قد تغير حتى تطرقه الشك فبادر بالسؤال : لقد قمت بمجهود اضافى فحسنت صورة البيت وكدت لا اعرفه • واجاب معتذرا :

– عفوك ان كنت ازعجت عائلتك الفئرانية . ويسعدنى انها كانت غائبة فما وقعت على جزء منها •

وضحك رفيقه : وقال مداعبا : لقد تحققت انك مجنون فقط • كيف صدقت دعابة عابثة وادخلتها فى اعتقادك !

– لم يكن امامى الا ان اصدقك • وبعضهم يؤمن باشياء اتفه من الذى قلت وتحول الكلام الى جد • فقد قال البشير الرفيق :

– لقد اتفقت معها على ان اتقدم لخطبتها رسميا ليلة الغد •

– لك الله يا صديقى • اترى ما هو وقع الخبر على اهلك وامك بالذات • قال ذلك وضرب بيديه على ركبتيه • واجاب الآخر :

ـ لقد حررت نفسي ونفضت كل غبار علق بي من القرية ٠

ـ لا اظنك تقصد ما تقول ـ رد صديقه ـ واردف :

فالقرية تبقى في اعماقنا حتى لو حولنا انفسنا بكلها الى المدينة ٠

واستمعا بعد ذلك الى الراديو ٠ واستمعا الى بعضهما ٠ ثم ركنا الى الصمت وقد غشيهما النوم فلم يعد يسمع غير شخير متناوب ٠

لما عاد البشير من العمل لاحظ ان الحائط المواجه مكسو بالورق الازرق وعليه شيء بارز وجذب انتباهه لافتة جاء فيها : يمنع التدخين ٠ واشعال التنور ٠ وكل مادة تحمل اوساخا واتربة ٠ الامضاء : عثمان ٠

ابتسم بشير وقام يبحث هذا الشيء الذي من أجله سنت هذه المحظورات كانت بدلة من النوع المتوسط ٠ ملفوفة بعناية فائقة ٠ لمسها بنظره ٠ ثم بيديه ٠ وفاجاه السرور ٠ وحدث نفسه : لقد يسر لي المهمة سوف اذهب بها معتزا الى موعدي الليلة الى بيت اهل الخطيبة فقد ارتفع في اعينهم الى اعلى مما انا عليه الآن . واخذ يقلب البدلة باعجاب .

كان عثمان وهو يعمل منتقلا بين السلالم ، لم يشعر بالتعب الذي كان ينتابه في مثل هذا الوقت ٠ وكان يعمل بجسده فقط ٠ وعقله هناك في القرية كيف سيقتبله الاهل ؟ وكيف يراه الناس ؟ فيسلمون عليه باحترام . يعد الاجوبة لاسئلة الفضوليين ٠ يتمرن على الابتسامة المتعالية ٠ والحركات الرصينة وقامت امامه المشكلة . فهل يذلها في ذلك المقهى الحقير . فيجلس بها على «الحصر» العفنة ! وتلك الالواح التي تبرز منها المسامير ٠ لو كانت بيده نقود لما قضى وقته في غير النزل الفاخر الذي يسود القرية..ليت النقود متوفرة . ورفع رجله ليتحول فلم تقع حيث اراد هو فكان ان زلت ٠ فلم يشعر الا وهو يهوي ومن ابعد طابق ......، وان صديقه لينتظر رفيقه وقد تاخر عن عادته في العودة . وها ان الوقت حان والموعد يزاحمه . وظل قلقا ينظر الى الباب تارة واخرى الى البدلة ٠ وفكره يتارجح ٠ هل يلبسها هل ينتظر رفيقه ليستأذنه ٠ واخيرا قرر ان يتصرف فليس في الوقت متسع ٠ واهل الخطيبة لا يستسيغون التاخير ٠

التابعي الاخضر

رادس في 12 / 10 / 1983

عيونك باقية وأنا راحل...

شعر: البشير المشرقي

(1)

أتسكع في هذا العالم
أتصدر قائمة الأموات
وأعلن عن موت لم يات
وعن زمن قادم
أتسكع في هذا العالم
وأراك مرافىء مشرقة
وسط الليل القاتم ..

(2)

أتسكع في هذا العالم
وأموت بلا كفن كمدينتنا
وأعود لأغرق في لج الحزن العارم

(3)

أتسكع في هذا العالم
أتصعد ذبذبة قصوى للحزن
وأسقط بين جفونك طيرا مقتولا
فارقه الأمل الحالم
لكن عيونك باقية
وأنا أبدا .. أبدا راحل !
فمتى نتلاقى صاحبتي ؟ ! ..

(4)

أتسكع في كل دروب مدينتنا
وأحاصركم كالريح
وأعرف أن مرابعنا لا تنبت
غير الشوك ..
إذن أتسكع في كل دروب
مدينتنا
وأواجه منزلتي الأولى :
هذا تصريح الموت .. فمن
يتراشق بالأحزان معي .. ؟ !

(5)

أتسكع يا وجهي المطلي بأصباغ
التاريخ ..
يدي تمتد إلى الصفصاف وصفصافي
يتنكب عني ..
من زمن ..
فليبك معي قفر الوادى

فأنا أدركتُ بأنّي ساريةٌ تبكي

(6)

أتسكعُ في هذا العالمْ
وأراكِ مِنَ الشُرُفاتِ مرافِيءَ
ترصُدُني
هلْ ترسِي بعدُ زوارقُنا ؟ أمْ
لا ترسِي أبدًا ..؟
فلقدْ تعبتْ أعصابي واتسعَ
الجرحُ الدائمْ
فكأنّي أحرثُ في الأمواجْ !

(7)

أتسكعُ في هذا العالمْ
وأكونُ كصفصافِ الوادي ..
أبدًا حالمْ
أبدًا حالمْ
وتظلّ معابرُ أيامي
أبدًا يا ريحُ تُناديني !

(8)

أتسكعُ في هذا العالمْ
وأُفاتحُكمْ بالسرّ .. فأيامِي
ليلٌ قاتمْ
وأنا ما بينَ ستائرِه ..
حلمٌ يتبخّرُ في الحين !

(9)

أتسكعُ في هذا العالمْ
وأراكمْ تمتهنونَ النسفَ
وتهجيرَ الطير الحالمْ
وأراكمْ لا تُبقونَ على ميثاقٍ
هلْ أسمعُكمْ آياتِي ؟
أمْ بُطلَ التغريدْ .. ؟

(10)

أتسكعُ في هذا العالمْ
وأُفاتحُكمْ بالصحْو علانيةً
لتعودَ إليكمْ خضرتُكمْ
وتعودَ إليّ مواويلي !

البشير المشرقي

قراءات في فكر وأدب الكاتب التونسي محمد مزالي

بقلم : رشيد الذوادي

– 2 – (*)

– رسالة رجل الفكر والثقافة :

والكاتب محمد مزالي يرى ان لرجل الفكر رسالة وواجبات .. ازاء الفرد.. وازاء الوطن لان « الكتابة مسؤولية » وبما ان كل فرد في المجتمع مسؤول فالكاتب هو الآخر مسؤول شأنه شأن الصانع والفلاح والتاجر والطبيب والمربي والموظف ، هم جميعا متكاملون في المسؤولية ، في هذا الشأن .

كتب محمد مزالي في عام 1954 في مجلة « الندوة » التونسية يقول تحت عنوان : « مسؤولية الكاتب » : « فانت تتبين مما سبق وظيفة الكاتب وخطورتها فهو يسمي الاشياء باسمائها ويكشف عنها كما يقول (سارتر) فيؤثر بذلك في مواقف الناس وفي علاقات الناس بعضهم مع بعض . واذن فهو مسؤول عن كل ما يقول ، أي عن كل ما يفعل ، وحتى عما لم يقل ، لان سكوته في ظرف من الظروف وتجاهله (الحالة) في وقت من الاوقات له معنى » (16) .

والكاتب محمد مزالي يرى ان لرجل الفكر رسالة لذلك نوه بدور الامام المازري ، وبفضل المفكر علي البلهوان الذى خصصه بدراستين : (علي البلهوان المناضل) (17) و (علي البلهوان المفكر) (18) .

(*) انظر العدد 3 – س 29 – ديسمبر 1983 من مجلة « الفكر » .

(16) (الندوة) ، س 2 ، ع 13 ، (جانفي 1954) ، ودراسات لمحمد مزالي . ط تونس 1974 ، ص 103 .

(17) مواقف : ص 70 – 77 .

(18) دراسات : ص 347 – 355 .

فرجل الفكر لا بد ان يعمل وان يجاهد ، وان يخلص الى وطنه الاخلاص الكامل .. ورجل الفكر فى فكر محمد مزالى يتأكد عليه الاختلاط بالطبقات الشعبية ويحبب التضحية ويحث على الايثار .

ويقف بجانب المستضعفين المهددين فى حقوقهم ، ويحث على التكتل ويقود المناضلين لاسترجاع الحرية موفيا بما عاهد الله والوطن عليه .

ورجل الفكر عند محمد مزالى أيضا يتأكد عليه ان يكون واعيا بالمسؤولية التى اضطلع بها مختارا لانه يمثل قيادة الحضارة وعليه ان يكيف شؤون الحياة حسب مشيئته .

ورجل الفكر الواعى عند محمد مزالى هو حر فيما يخلق وينتج ، لكن عليه ان يسهم فى اثراء الثقافة القومية وبلورة الاصالة الوطنية ولا ينغلق على نفسه فالكاتب والمثقف حر لكنه مسؤول .. يقول مزالى فى هذا الشأن :

« على انه اذا كان الكاتب حرا فيما يخلق وينتج فانه بوصفه مواطنا وانسانا لا يمكنه ان يبقى مكتوف الايدى ازاء ما يجرى فى الدنيا ، مغمض العينين امام ما يعترى الافراد والمجتمعات فى كل مكان من علل وما يلحقهم من ضروب الاهانة والغبن ، ولا مبرر ـ اخلاقيا ـ لبقائه على الربوة متصاما على نداء المعذبين فى الارض ، الساعين الى النور والعدالة ، المجاهدين فى سبيل الحرية والكرامة ، فهو حر ، ولكنه مسؤول .. فلا يليق به ان يبقى فى غفلة عن قضايا التقدم ، والسلم ، والازدهار ، وحماية مكاسب البشر فى كل المجالات ، ومكافحة الاستعمار والميز العنصرى واستغلال الانسان لأخيه الانسان (19) .

وعلى ضوء هذه الرؤيا يتشدد محمد مزالى فى التصوف الفكرى عندما يقرر ان رجل الفكر عليه ان يتصفح كتاب الوجود اللامتناهى ويعطى للالتزام محتواه التقدمى (20) .

ونظرة محمد مزالى لرجل الفكر تستطيع ان تستشفها حتى من خلال حياته الشخصية ، لكنه عندما طرحها اراد بها ان يشعر الآخرين باعتبار ان الحياة ملحمة والانسان بطل فى هذه الملحمة (21) .

(19) نفس المصدر : ص 356 ـ 363 .
(20) وجهات نظر : ص 57 .
(21) مجلة « العلم والتعليم » ، س 3 ، ع 16 ، (1977) ، دراسة بعنوان : « مفهوم الفكر والادب والانسان فى كتابات محمد مزالى » لنور الدين بن بلقاسم ، ص 9 .

والمثقف في فكر محمد مزالي ليس من فاز بنعمة العلم وظن انه في حل من شعبه .. المثقف الواعي هو من تواضع ، واخلص الى أمتـه والتـزم بخدمتها وعمل عملا صالحا لا ينقطع ، وفهم من الحياة انها تأدية رسالة والتـزم بهـذه الرسـالة (22) .

ــ خصـائص فكـره :

هذا جانب من جوانب فكر محمد مزالي الخصب ، على ان هنـاك جـوانب طريفة اخرى من هذا الفكر وهي تترجم عن اصالة هذا الكـاتب وعن وعيـه بمشاغل جيله .

ان لهذا الكاتب اهتمامات كثيرة وشغلت هذه الاهتمامات باله طويلا .. فرجل الفكر هو صانع التاريخ والحضارة ، وهو يتحمل مع رجـل السياسة مسؤولياته .. ورجل الفكر عليه ان يعمق فكرة الاصالة في جيله حتى يشب متجذرا بها ، والادب ليس هو مأساة كما يرى محمود المسعدي ، بل ملحمـة والانسان هو القادر على صنع مصيره ، ونحت كيانه (23) ، والاديب الحق في نظره هو صاحب المبادىء الذي يجعل من حياته موقفا ، لذلك رأينـاه يكتب في مقال (شباب الادب وأدب الشباب) فيقول : « الكاتب الاصيل هو الذي يأخذ دائما موقفا من دون مواربة وفي غير التواء ، لانه يؤمـن بقـدرة ارادة البشرية على تغيير الواقع ، ولانه لا يفكر بشيء بأسطـورة حتميـة التـاريخ وترديد بعضهم لمأساة الانسان في عالم تدير شؤونه قوى ما ورائية عمياء أو نواميس اقتصادية ومادية قاهرة .

والكاتب الاصيل يأخذ دائما موقفا في شجاعة واباء ، لانه يأبى ان يعوي مع العاوين ، اذ هو يرفض مجتمع الذئاب ، ويأبى ان يهتف مع الهاتفين لانه يحتقر المنافقين ، ويرفض ان يصمت مع الصامتين لان الصمت ليس دائمـا من ذهب » (24) .

وعالج محمد مزالي في كتاباته أيضا ظاهرة التقية التي بـدأ ظهورهـا في الادب العربي في بدايات عهد بني أمية حينما التهبت الفتن الكبرى.. « وتيار التقية » هذا يتمثل في انعدام العلاقة التقابلية بين رجالات الفكر والسياسة..

---

(22) مواقف : ص 143 و 144 .

(23) من وحي الفكر : ط تونس 1964 ، ص 204 ــ 205 ، مقال : هل الادب مأساة بالضرورة ؟

(24) مواقف : ص 89 ــ 118 .

ان السياسيين خشوا من الفكر فلم ينزلوا أصحابه المنزلة اللائقة بهم .. وأهل الفكر احتقروا أنفسهم ونشأ عن كل هذا فراغ في العقل وفي الوجدان أدى الى ظهور أنواع من المفاخر والاهجية لا صلة لها بالادب الحي الصادق .. فمن هنا جاءت دعوة محمد مزالي الى ضرورة بعث فكر عربي جديد وهو في نداءاته ينطلق من تصور (سقراط) لدور المفكرين في الحياة الاجتماعية .. محمد مزالي شأنه شأن (سقراط) فهو يود ان يصبح أهل الفكر من شعراء وفلاسفة هم ساسة العالم (25) .

واهتم هذا الكاتب بعدة قضايا أخرى : قضايا أدبية وسياسية وفكرية وفلسفية وتربوية .. فهو مثلا في مجال تأصيل الكيان التونسي يحرص على تعميق فكرة (الوحدة القومية) فنراه في مقال : (في الوحدة القومية) يحمل على المتعالين والادعياء وانصاف المثقفين ، الذين تأثروا بآراء الاجانب واعتبروا انه من الموضوعية ان يقولوا عن انفسهم ما اثبته الاجانب عنهم .. هؤلاء شككوا في الوحدة القومية .. وقالوا عن هذه الوحدة هي مهلهلة وضعيفة باعتبارها تكونت بدافع كره الاجنبي ومقاومة الدخيل .. رد محمد مزالي على هذا المفهوم الخاطىء مشيرا الى ان وحدة الكفاح تحققت من اجل شعور قومي مرهف هو احياء أمة وبعث دولة ، وان وعي التونسيين لم يكن سلبيا حتى ولو بدا كمظهر لرد الفعل ضد سياسة الفرنسة والاذابة لان وحدة الشعب الحقيقة انبتت من جذع حضاري ، ويثبت هذا الكاتب حقيقة فلسفية هو انه : « لا توجد وحدة قومية من دون جذع حضاري مشترك ومثل عليا واحدة ، واذا ما توفر ذلك فلا خوف على الامة من التلاشي والفوضى حتى ولو كثرت الآراء وتضاربت المدارس الفلسفية » (26) .

ويقول عن « الوحدة القومية » وعن « طرافة الشخصية » : ان وحدة تونس القومية تتطلب منا الايمان باننا أمة ، وحث هذا الكاتب شباب تونس على التعلق بالجذع الحضاري ، لان لتونس كيان وروح قوية ، وتميز وتفرد بخصائص حتى وان كانت هذه الخصائص تتطور .. لكن الثابت هو ان تونس

---

(25) سقراط : فيلسوف يوناني ، توفي حوالي 399 ق. م. ، احدث بأسلوبه وفكره ثورة في الفلسفة .

(26) مجلة « العلم والتعليم » : س 3 ، ع 16 ، (1977) ، دراسة بعنوان : (مفهوم الفكر والادب والانسان في كتابات محمد مزالي) لنور الدين بن بلقاسم ، ص 9 .

كبلاد لها كيان ، وان الشعب التونسي له خصائص منذ العهود الغابرة ، وهو متأثر بمناخ معين وقد حافظ على روحه الخالدة وعلى روحانيـاته وخصائصه الذاتية رغم كثرة الغزوات العسكرية وملاحقات القهر والعسف ، وأكد على وجوب المحافظة على هذا الطريق ، لان واجب الشباب اليوم يتمثل فى احيـاء الامة وصيانتها والتوفيق بين الاصالة والمعاصرة » (27) .

ولم يهمل محمد مزالى قضية (المدارس القرآنية) فى عهد الحماية ، اذ فى بداية حياته الادبية ـ وبالتحديد فى عدد « الحرية » الصادر يوم 18 فيفـرى 1951 ـ نجد مقالا ثوريا بعنوان : (ماذا بالمدارس القرآنية ؟) دافع فيه عـن (الجامعة القومية للتعليم) التى وقفت الى جانب مدرسى هذه المدارس وحمل فيه على المستعمر الذى يريد المس بحرية البرامج التعليمية المعترف بها طبق الامر المؤرخ فى 1942 (28) .

وهكذا يتضح ان محمد مزالى كتب فى كل مشاغل جيله ، وفى كل ما يهم التونسى والعربى عموما مثل : قضية الجزائر ، قضية فلسطين ، وفى مستقبل علاقات الشغالين ، ولم يهمل نضال حشاد كرمز للعاملين ، ولم يتخل عن حرية الفكر ، ولا عن مسؤولية التحية ، ولا النظـام التربـوى المشـوه ، ولا الماضى ، ولا أولئك الذين ظلموا الادب التونسى ، كما نوه بـدور الثقـافة ، ونادى بدعم الروح العلمية وتشجيع التكنولوجيا .

ـ فى مجلـة « الفكـر » :

وفى مجلة « الفكر » الصادرة منذ 1955 حرص هـذا الكـاتب على بلـورة (تيار التونسة) وحسس بطرافة الشخصية التونسية ، وعرف باتجاهـات الادب التونسى قديما وحديثا ومكن الكثير من الاقلام من الظهور على الساحة الادبية والفكرية .

ومجلة « الفكر » كلفت صاحبها الكثير من التضحيات واثبتت انه بامكـان الاديب ان يناضل .. وفعلا اضطلعت هذه المجلة بدور ريادى فى جمع النخبة وتنشيطها فى مجالات الخلق والابداع ، وركزت جملة من المبادىء والقيم أعطت الحياة الفردية والجماعية معنى ، ووجهت الشباب الى رؤية الكون واستشفاف الحقيقة المجردة فيه .

---

(27) راجع محاضرته بقصر هلال على منبر اللجنة الثقافية المحلية : (6 أوت 1971) بعنوان : « فى الوحدة القومية » .

(28) هذا المقال من دون امضاء وقد نشر فى كتابه (مـواقف) ، ص 234 ـ 237 .

وفى مجلة « الفكر » يرى محمد مزالى ان لومضة الفكر رسالة ، وان الكتابة مسؤولية ، وان طرافة الاصالة خدمة الانسان ، وان الاديب بامكانه ان ينجح ويفرض نفسه مهما كانت العراقيل ، وتتحسس اعجابه بالكثير من الادباء والشعراء والقصاصين التونسيين .. فهذا المسعدى فى (السد) يكاد يكون خلق العربية من جديد من حيث العبارات والصور ، وهذا محمد فرج الشاذلى ، وعلي الدوعاجى ، ومحمد العروسى المطوى ، والبشير بن سلامه ، ورشاد الحمزاوى ، وعزالدين المدنى ، الذين استطاعوا ان يبدعوا بمستوى أهلهم لان ينتقى شيء من انتاجهم فى كتب مدرسية ، وفى دفاعه عن اللغة العربية كتب مخاطبا بعض الثوريين الذين احترم افكارهم وشجعهم على نشر انتاجهم فى « الفكر » قال لهم قولة (فولتار) الشهيرة : « اني أخالفك فى كل كلمة تقولها ولكنى سأدافع حتى الموت عن حقك فى قولها » .. ناقش هؤلاء وبين خطاهم عندما اعتقدوا ان « الثورة فى ترك اللغة العربية » ، ولكن العربية التى يوصى بها هى العربية المبسطة والمسيرة ، يشير الى هذا فيقول : «فلغة الشعب ليست اللغة العامية بل العربية مع التسهيل والتبسيط والتطوير » (29) .

وفى « الفكر » تراه يتوسم الخير فى الشباب الادبى وفى الاقلام الشابة ، ففتح المجال امامهم ليعبروا عن اتواقهم وينشروا تجاربهم لان الشباب هو العرق النابض للامة والقوة الواقية من التحجر ، ومن دفاعه عن حرية الكاتب كتب قائلا : « انى لا أومن بالتفرغ لانه ليس ضروريا ولا شرط كافية ، ولانه قد يحد من حرية الكاتب ويحرجه » (30) .

ومحمد مزالى يرى فى تجربة الخلق الادبى الاصيلة ، يراها عفوية تلقائية، و « الفكر الخالد » عنده : مناخه الحرية ، والاديب الذى يكتب لاجل المادة فقط فمن يضمن حريته ؟ (31) .

و « الفكر » بفضل منشئها واسرها المتوالية (32) اضحت اليوم احسن بطاقة تعريف للثقافة القومية والعمود الفقرى للادب التونسى الحديث شأنها

(29) مواقف : ص III ، و « الفكر » س 26 ، ع 2 (نوفمبر 1980) .
(30) مواقف : ص 226 .
(31) نفس المصدر ، ص 222 .
(32) أول اجتماع للاسرة الفكرة انعقد بنهج سيدى البنا بمطبعة الشركة التونسية لفنون الرسم وحضره الى جانب مديرها الاساتذة : علي

شأن بعض مجلات تونس فى الماضى كـ (العالم الادبى) فى الثلاثينات ، ثم (المباحث) و (الثريا) و (الافكار) فى الاربعينات ، و (الندوة) فى الخمسينات .

ـ محمد مزالى الكاتب :

ان محمد مزالى من كتاب تونس الكبار دون ريب .. ألف عدة كتب .. وعبر عن مشاغل انسان هذا العصر اكثر من مرة ، واسهم ـ وعن طريق قلمه ـ فى الكثير من المشكلات ، التى تتقاذف المجتمع كتب مزالى كثيرا ، ولكنه ما كتب للكتابة فقط ، ولا كان يكتب من فراغ ، هو فى دروبه الفكرية العديدة تتحسس انه طرح قضايا التونسيين ، والعالم الثالث ، كتب عن هذه القضايا بحرارة الكاتب المؤمن برسالته المعتز بمضاهيه التواق الى مستقبل أفضل .

دروب فكره كلها تجسم وعي كاتب صادق ، واجه حيرة الانسان ، الانسان الذى يحلم بالعدل والحرية .. ويتوق الى الخير والمساواة ..

والكاتب محمد مزالى تفاعل بمنتهى الوضوح مع ابناء جيله ، فلم يركن امام الصعاب ولم ينزو . فضل ان يكون صريحا مع من يكتب لهم .. توجه اليهم باللائمة ككاتب مسؤول ، ووضح لهم الكثير من المفاهيم والدروب بضمير اخلاقى محاولا بذلك الاسهام فى بناء انسان عربى جديد يعتمد على قدراته وذواته فيحقق بها أحلامه ومطامحه .

يشير الى هذا فى مقدمة كتابه (دروب الفكر) : «لقد حاولت ، يا قارئى الكريم ، ان اطرح بين يديك قضايا هى قضاياك ، وان اثير مشاكل هى مشاكلك ، وان اجابه متناقضات هى متناقضاتك ، وان اواجه تساؤلات هى تساؤلاتك ، وان اقف من الوجود مواقف ، دعوتك الى التفكير فيها بكل جد ، ورجوتك امعان النظر فى ابعادها بكل صبر ومعالجتها بكل شجاعة » .

ولقد كان ديدنى فى كل ذلك ان اكون معك صريحا ، اذ كنت اطمح بآمال الى ان أفيد قومى وشباب بلادى (33) .

البلهوان ، والطيب السحبانى ، وعروسى المطوى ، ومحمد الطالبى ، وكان يحضر اجتماعاتها المتوالية فيما بعد عدد من الادباء منهم : البشير بن سلامه ، والعروسى المطوى .

(33) دروب الفكر : محمد مزالى ، ط تونس 1979 ، (المقدمة) ص 15 .

وكلما استوقفك هذا الكاتب فى (دروب فكره) ، وفى (مواقفه) و (وجهات نظره) وغيرها .. تراءت لك صورة عن هذا المثقف الذى حبا (الفكر) ، وتفاعل مع (المواقف) الحرة ، وشده العقل والضمير الحي .. هو انسان منحاز انحيازا كاملا اليه .. لكنه يتميز بذهن متقد وعقل مفكر (34) . هو جرىء فى بحثه وتفكيره .. يعتصم بالفكر والعقل .. يتوخى فى بحوثه منهجا نقديا واضحا .. ينقد بهذا المنهج النقدى مختلف القضايا الفكرية .. يكفر بأسطورة حتمية التاريخ ولكنه كما يقول الناقد أبو زيان السعدى : (له صلة ما قد تكون قوية بفكر أبى حامد الغزالى صاحب كتاب « المنقذ من الضلال » (35)) وكلما تعددت قراءتك لانتاجه تتحسس انه « كاتب أديب صاحب اسلوب فى التعبير واسلوب فى التفكير » (36) . كما يشير الى ذلك الناقد العربى رجاء النقاش .

هذه صورة اجمالية عن فكر الرجل والقيم الايجابية فيه .. التقت فى هذا الفكر الاصالة المستنيرة والتحرى والنضال من اجل الغد الافضل ، ومثلت « دروب فكره » شهادة تصور ومشاركة فى بناء الفكر العربى الجديد والناضج ، الذى يحمل على التفكير ، ويأخذ باللب ، ويسهم فى تطوير المجتمع وفى افادة الناس (37) .

ان محمد مزالى أديب يمتلك شخصية قوية ، يعايش الناس ويحترق من أجل الضمير الاخلاقى ، وفكره يؤثر فيك لانه أحاسيس وتجارب معاشة وفيه ظواهر القدرة والمسؤولية والرؤى البناءة وما يشد الانسان الى الكفاح المتواصل وما يحفزه الى نشدان الحقيقة وتبيان الطريق .

رشيد الذوادى

---

(34) الفكر : س 25 ، ع 7 (أفريل 1980) ، مقال للاديب صالح الحاجه ، ص 124 — 125 .

(35) الفكر : س 19 ، ع 4 ، (جانفى 1974) ، ص 15 ، دراسة للناقد أبو زيان السعدى بعنوان : (الفكرة والمنهج فى « مواقف » محمد مزالى) .

(36) مجلة المصور المصرية : الناقد رجاء النقاش .

(37) راجع جريدة (المدينة) السعودية ، بتاريخ 1981/4/15 ، (حديث فى مجلة « الفكر ») ، 4 مارس 1981 ، ص 12 .

عفـــوا ... أيّها العرب !

شعر: الحبيب الهمامي

(1)

البحرُ دمٌ ،
دَمُنا البحرُ ..
ونَموتُ ولمْ نُولدْ
ونَعيش كما الأمواتِ
ولا فخرُ

* * *

هذا زمنٌ دمويٌ منفى فى منفى
اوطانٌ فى سجن
بلدٌ فى قنبلةٍ
مَلكٌ فى البرج العاجيِ
مملكةٌ فى قبر
مِنْ أين سيدخلني الصبرُ ؟
لنْ أطبخ صوتى صمتا
لن ألقيَ ناريَ فيِ الماء
وألبس عاريِ
ما بالطاعة أوصانيِ الشعرُ .

(2)

مضى الليل
والفجرُ في ذمة الله
هل أشعل الصبرَ ؟
أم أحفر القبرَ ؟
موْتي أنا جاهز
لن أموت على حين غفلهْ
لأني نشأت بعيدا عن الأمهات
بلا دهشة
وبلا ظل قبلهْ
مضى الليلُ
والفجر ما راود الكونَ
كيفَ ألملمُ جرحي
وكيف أكونُ أسئلتي
لأمارسها فوق أغصان هذي المجلهْ

(3)

أنا الدامع القلبِ
صبوا عليَّ القصيدةَ
حتى أجفّا
أنا المتدخل فيِ شأن كل المنافيِ
أنا المتخرجِ من كل مشنقةٍ

فصبوا علي القصيدةَ
حتى أكفَّا .
أنا العربيُّ الخرابُ المصابُ
بداء العروبة
صُبوا عليَّ القصيدة
حتى أموتَ ...وأشفى

(4)

سألمحني بعد هذي القصيدة
مُنفرداً بدمي
أتأهَّبُ للانتماء إلى زمن
خارج عن نطاق الملكْ
سأحمل من كل منفى
قتيلين
لمْ يبلُغا في الحياة
ظلال الضحكْ
وأجتاز وجهي
وأطلق ناري
على جسدي ..
فَمَنْ ينتمي الآن
للوطن العربيِّ هلكْ

(5)

خراب + خراب = وطنْ
فمرحى بحكمة اعراب هذا الزمن
عليهم سلام الكفنْ .

(6)

عدوي انتمائي لهذا الزمان المعلقِ
في زحمة الغزوِ ..
والغزو من عادة الملك المتربعِ ..
فوق الجماجم
والبشريةُ في قبضة الحرس الملكي
واين تربِّي الحبيبة قبل الزفاف
ضفائرها ؟
فالخراب أساس التآلفِ
(في العالم الألف)
والحبّ حبرٌ على ورقٍ
والحبيبة لم تبكِ
ربتْ أظافرها
لتعيش

(7)

إنا اعطيناك المنفى
قل : حمداً للفوضى .
أغلق صوتكْ
أشعلْ موتك
عبِّر عن موتك لا عن رأيك
يَا ملك الصمتْ
ها أنت كما أنتْ
لا تَملك في زمن المنفى
إلا منفاكَ

وحلمكَ لم يأنس هذا الموتْ
هلْ وجهك معترفٌ بك ؟
ليتـك ما كنتَ
ليتَ الخطوات اذا شئتْ
تطويها في أضلاعك يا ليتْ
عرس العشاق جنازتهمْ
يمضون كحلم في حرب
ما زال الصبر بلا عشٍ
والأرض بلا نعشٍ
والعار بلا عرشٍ

(8)

وشاعر كألفْ	بلاد كخاتمْ
وآخر كـأفْ	وأخرى كعالمْ

(9)

اضيِّعني الآن في دمك المتساقط
من شجر الجرح
هل سأسمي الضياعَ رحيلي
لعلي سأبلغ وجهك حين اضيع تماما
لعلّي أصادف عينيك
حين أصادفني في ثياب القتيل
لعلي ألامس نهديك
حين على الانتهاء أميلْ
يُضيعني دمك المتعلق بي
أين أدفنك الآن ؟
أين سأدفن نفسي ؟
فإني قتيلكِ
ثم قتيلي

(10)

دَمي يتَألقُ في أفُقي
وَمِشنَقتي تَاجُهَا عُنُقي
أسير إلى العشق أشقى
أسيرُ إلى كفني أرتقي
أثور فانهالُ فوقي قتيلاً
فيشدُو خرابي على ورقي
أيا شمسَ موتي لماذا
تأخرْتِ عني ولمْ تُشرقي؟
ففي الأرض لم يجد القلبُ حبا
بماذا أسُدُّ ترى رمقي ؟
أيا نفس إن رفض الموتُ وداً
فلا تشعلي اليأس ،واحترقي

(11)

يا أيها الوطن المسافر في المذابح
كيف يمكن أن أراكْ؟
جُثثٌ على جُثث هنا
عرب بلا عرب هُناكْ
وقصيدتي مفهُومةٌ
ستسيرُ بي حتى الهلاكْ

نوفمبر 1983

الحبيب الهمامي

أعلام «قمّوده» الاسلامية

بقلم : أبي القاسم محمد كرو

– 4 – (*)

ابن مسافر القمودى :

واسمه الكامل : أبو محمد عبد المعطى بن مسافر بن يوسف القمودى .

كان من رجال الحديث الثقاة ومن رواة الموطا ومن أهل الزهد والصلاح يعد مثالا للاستقامة المطلقة والنزاهة التامة .. يقول الشعر ويشتغل بالادب رغم تخصصه فى الحديث وقد هاجر الى الشرق وطوف فى بلدانه ، واستقر فى الاسكندرية مدرسا للحديث وعنه اخذ الكثيرون . ومن أشهرهم الحافظ السلفى . وهو أعظم وأشهر المحدثين فى القرن السادس وأصله من اصبهان واسمه الكامل أبو طاهر احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن ابراهيم السلفى . ولد باصبهان سنة 1081/474 وطاف اقطار الاسلام الشرقية كالعراق والحجاز والشام ومصر ، واستقر فى الاسكندرية سنة 1117/511 وبقي فيها الى وفاته بها سنة 1180/576 .

وقد بلغت مكانته وشهرته فى الحديث أقصى الارجاء وأعلى الدرجات (57) وكان يدون الحديث والاخبار والادب على جميع من يمر بثغر الاسكندرية من العلماء والادباء والحجاج وحتى من التجار ورجال الاعمال . وترك ذلك كله فى جذاذات مبوبة سماها « معجم السفر » وهو كتاب العمر بالنسبة له ، وهو من أهم المصادر الموثوقة عن معاصريه من أهل الحديث والادب .

(*) انظر « الفكر » : 1 و 2 و 3 – س 29 – 1983 .

(57) انظر عنه : الاعلام ، ج 1 ، ص 209 ، ومعجم المؤلفين ، ج 2 ، ص 75 .

ويبدو ان السلفى قد تتلمذ على بن مسافر القمودى وكتب عنه الاحاديث خلال السنوات الاولى من اقامته فى الاسكندرية وان صـداقة روحية وأدبية قامت بين الرجلين .

ولكن السلفى الذى كتب الحديث عن بن مسافر القمودى وأعطـى عنـه صورة مشرقة للغاية تدل على مكانة القمودى العلمية والاجتماعية والادبية .. لم يذكر لنا تاريخ ميلاد القمودى أو وفاته ، أو حتى تاريخ لقائه به (58) .

وكل ما ذكره السلفى : ان القمودى حين اجتمع به كان عمـره قريبـا من المائة عام ، وأن القمودى قال قصائد اخوانية كثيرة فى السلفى ، وان أهل الاسكندرية لم يعرفوا من القمودى زلة قط (59) .

السكـدلى الشـاعـر :

فى ختام هذا الحديث نلتقى بشاعر ، لعله من كبار شعراء البلاد التونسية فى القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر ميـلادى ، ان لـم يكـن اكبـرهم واشعرهم باطلاق .

ومع ذلك ، فنحن نكاد لا نعرف أى شىء عنه . ولولا نتف قليلة اختارها صاحب الخريدة من قصيدة واحدة من شعر هذا الشاعر لما امكن ان نسمع عنه أى خبر .

والغريب .. ان صاحب الخريدة الذى اعجب بشعره واختار منه فى كتابه، لم يذكر لنا حتى اسمه واسم أبيه ، فضلا عن تاريخ ميلاده أو وفاتـه ، أو البلد الذى انجبه وعاش فيه .

ولولا ان الابيات المختارة من قصيدة قيلت فى مدح أمير لمـا امكن لنا ان نعرف شيئا عن بلده وعصره وبعض الملابسات المتصلة بذلك .

---

(58) من الممكن ان السلفى كتب عنه بيانات أخرى لم تصل الينا اذ ان مـا وصلنا هو قسم من كتابه وكان يضيف دائمـا معلـوماته الجـديدة فى جذاذات لعلها ضاعت مع القسم المفقود .

(59) روى السلفى حديثا عن القمودى ، وسننشر نص الرواية كاملا فى كتاب « اعلام قموده » وكذلك فى كتاب « اعلام افريقية والمغرب » المستخرج من كتاب السلفى .

وهاكم أولا كلام صاحب الخريدة بنصه وحرفه :

« قال وأنشدونى للسكدلى فى مدافع بن رشيد (60) يهنيه بعيد النحر من قصيدة موسومة بالممدوح أولها :

خليلى عوجا بى لتلك المرابع ... لنسفح بالسفحين در مدامعى
ولا تبخلا بالدمع على الذى بنا ... يبرده سح الدموع الهوامع
منازل ساداتى ومغنى أحبتى ... وموضع اترابى (61) وخير مواضعى
بها قد جنيت العيش غضا وملبسى ... شبابى ومن اهواه غير ممانعي

ومنهـا :

الا قاتل الله اللوى من محلة ... وقاتل دهرا باللوى غير راجع
يكاد فؤادى من تذكره الحمى ... وأهل الحمى ينقد بين الاضالع

ومنهـا فى التخلص :

لقد ملكت روحى كما ملك العلا ... وحاز الندى جود المليك (المدافع)

ومنهـا فى المديح :

فما أنت الا جوهر قام ذاته ... بنور هدى من جوهر العدل ساطع
وراجيك موفور ، وشانيك هالك ... وأيامك الدنيا بغير مضارع » (62)

من هذا النص يتضح ، ان صاحب الخريدة او من نقل عنه :

1 ـ نسب الشاعر الى قفصة

2 ـ لقبه بالسكدلى

3 ـ ونقل مديحه فى مدافع بن رشيد

---

(60) ترجم له المرزوقى فى كتابه عن قابس ، ص 179 ، وذكره ص 129 ـ 182 ـ 254 ـ 261 .

(61) فى الاصل المحقق (اطرابى) بالطاء ولعله خطا مطبعى .

(62) الخريدة (قسم المغرب ..) ، ج 1 ، ص 129 .

وهذا كل ما جاء به .. فهل يمكن بهذا وحده ان نعرف الرجل وعصره وشعره واخباره ؟ طبعا ، لا . ولكن اى شيء نستطيع ان نقوم به لادراك حقيقة الرجل .. وبلوغ أي يقين عنه وعن شخصيته وتاريخه ؟. لا شيء .. سوى ان نربط الظروف بالاسماء ، وبالزمان والمكان .. وهذا ما قمنا بـه ، فدلنا على جوانب أساسية من حياة الرجل ونسبته وعصره :

1 ـ فكونه من أهل ثفصة ، أمر مهم للغاية ، فهو مفتاح يمكننا به ان نحدد البلدة أو القرية التي ينتمى اليها ، أهى ثفصة المدينة ، أم احدى القرى أو القصور التابعة لها ..؟

2 ـ لقب السكدلى ، كان غريبا عندى ، ولم يخطر ببالى قط ، انه نسبة الى بلدة معينة أو مكان معروف ، فقد جعلنا صاحب الخريدة لا نفكر في المكان ، بعد ان قدمه لنا كشاعر من أهل ثفصة .

ثم رأيت فى كتاب فرنسى ، وضعه احد المراقبين المدنيين عقب الحرب العالمية الثانية عن سكان اراضى العروش والمناجم فى « المراقبة المدنية » لجهة ثفصة ، فوجدت اسم « بلاد سيقدال » شمال المكناسي . فقفز الى خاطرى فورا اسم الشاعر السكدلى ، المنسوب الى أهل ثفصة . وقلت لا بد أن يكون من هذا المكان ، وبالمراجعة (63) تأكد انه شاعر قمودى من شمال المكناسى . ونسبته الى أهل ثفصة عند مؤلف الخريدة وغيره من المصادر التى نقل عنها ، انما تؤكد هذه الحقيقة ، فالمنطقة كلها واحدة جغرافيا وبشريا ، ثم ان تكرر النسبة دليل على انتقال المنسوب من مكان نسبته الاولى الى مكان نسبته الثانية ولقب السكدلى جاء ذكره فى البداية فهو دال على اصل الرجل ومسقط راسه دون ريب .

3 ـ اما مدافع بن رشيد ، الذى مدحه السكدلى بتلك القصيدة الفريدة ، الممتازة ـ رغم كونها مديحا ـ فهو أمير من أمراء بني هلال الذين حكموا مدينة

---

(63) انظر : كتاب « القبائل العربية فى مراقبة ثفصة المدينة .. » ، وكتاب « ثفصة العتيقة وثفصة الحديثة » وهما بالفرنسية وفى كل منهما خريطة للمنطقة تحدد موقع « سكدال » أو « سيقدال » بالقاف المثلثة أو كما ينطقها الاعراب ، ولا شك فى أن الكاف حرفت بعد عصر الشاعر .

قابس فى عهد ملوك الطوائف ، الذين تقاسموا المملكة الصنهاجية من منتصف القرن الخامس الى سنة 555/1160 حين زحف عليهم عبد المؤمن بن علي الموحدي فقضى عليهم وحرر السواحل التونسية من سيطرتهم ومن نفوذ النرمان .

وكان مدافع بن رشيد أميرا على قابس من سنة 542 الى 555 . وكان هو نفسه شاعرا وكريما سخيا بعطاياه وجوائزه على شعراء المديح الذين كانوا كثيرين فى بلاطه . فكان السكدلي ويحيى التيفاشي القفصي من كبار الشعراء الذين عاشوا حوله ومدحوه باشعارهم ، وانتهت اخبارهم بل وحياتهم بانتهاء امارته وزوال سلطانه (64) .

وبختام القول والتعريف بشاعر قموده الكبير السكدلي ، ينتهى حديثنا عن هذه النماذج من اعلام قموده الاسلامية ، الذين هم فى الواقع مجرد أمثلة لعصرهم وثقافتهم ومناطق انتسابهم . اما المزيد من التفاصيل عنهم وعن عشرات الاعلام الآخرين الذين انجبتهم بلاد قموده قديما أو ولاية سيدى بوزيد حديثا .. فانه سيكون ـ كما وعدتكم فى طالع هذا الحديث ـ فى كتاب يطبع فور الانتهاء من جمعه وتأليفه ان شاء الله .

أبو القاسم محمد كرو

---

(64) انظر عنهم كتاب « قابس جنة الدنيا » والخريدة وارايات المبرزين .

(65) ألقى هذا البحث فى ملتقى (أبو بكر القمودى) الاول بمدينة سيدى بوزيد يوم 1979/5/18 .

نورانيات ابنة الصحراء في خيمة الديجور
ظهيرة يوم قائظ

شعر: يوسف رزوقه

هل سألت الجزيرة عنها :
ابنة العلق الملكي التي تكتب الشعر في خيمة الفقراء ؟
اسمها : أفق يتدفق نورا
وسيرتها : أسطر في كتاب الطفولة ما خطها الشعراء
يموء الخريف السلالي : لا ،
لك ما لك : فاتجهي نحو وكر الينابيع والأبهه
وادخلي في حوار لذيذ مع الآلهه :
ولكنها تتوخى الفرار
إلى جنة كلها حجر عصبي ونار
وتضرب خيمتها في خراب الفيافي البعيدة
من أين ؟ من أي نحو تهب القصيدة ؟
ساكنة هي ريح الشياطين في مهمه عدمي كهذا ..
فهل لابنة العلق الملكي عصا السحر كي يتفجر نبع ارتواء
ظهيرة يوم لعين ؟ :
سراب يراقص مليون أفعى
وفي العين ، تمضي الرؤى : شجرا ، شجرا
يتميع مقتربا ، يتربع محتضرا
وإذ يتماس اللظى واللظى :

يَتَطَايَرُ كلّ الحَصَى عَالِيا ،
يَتَلَوْلَبُ حَتّى انْخِرَام النَّوَاتَاتِ فِيهِ ،
وَيَسْقُط مُنْتَحِرًا .
وَيَكونُ مُوَاءٌ بَعِيدٌ
تُصعّدُهُ قِطط الرّوح في القُمقُم الزّمَكانِي .
صَاحَ دِيكُ الغرِيزَةِ : كو كو كُ كو كو
وَأنْثَى الظهِيرَةِ تَدْنُو سَرِيعا وَتَنْأى بَطِيئا
وَتَرْكحُ في أفُقِ الرّأي كي تَتَعَرّى ولاَ تَتَعَرّى
وَتَمْضِي إلى ذَاتِهَا ، بِخُطى مِنْ سَرَابْ .
الحَقِيقَةُ : تَخْتَلّ عَائِلَةُ الطيْرِ ،
« سِيمُورْغْ » (*) فَقَط ظلّ في الدّم جُرْثُومَةً تَتَلَظّى :
يَمُدّ ابْنَةَ العَلَقِ الملكي بِنُورٍ غَرِيب
وَكَانَتْ تُعَانِقُهُ وَتُفَارِقُهُ وَالظهِيرَةُ دَاخِلَ خَيْمَتِهَا :
مَطرٌ هَمَجِيٌ وَثَلْجٌ .
كذَا تَتَفَانى الدّوَاخِلُ في عِشْقِهَا
تَتَنَاهَى إلى مَدْخَلِ السّرّ :
رَاسِفَةً في سَلاَسِلَ مِنْ ظمَإٍ وَحَنِينْ
تَنَامُ ابْنَةُ العَلَقِ الملكي عَمِيقًا
وَيَخْتِمُ خَيْمَتَهَا شَمَعٌ مِنْ شُعَاعْ .

يوسف رزوقه

(*) سيمورغ : إله الطير لا تني تتقصاه الطيور . وهو طائر لا يتجلى الا للمتصوفة ، ورمز الله هو صوفيا .

جدلية الشرق والغرب
في الرواية العربية المعاصرة

بقلم : محمد الباردي

— 2 — (*)

2 ـ الاستلاب الحضاري :

ان هذا الموقف الرافض يقابله فى الرواية العربية موقف آخر يرى فى العلاقة بالغرب مظهرا من مظاهر الاستلاب . وهذا الموقف يتبناه الى حد بعيد طه حسين فى روايته « أديب » وعبد الرحمان الشرقاوى فى « الفلاح » وعبد الرحمان منيف فى « الاشجار او اغتيال مرزوق » فيكف يبدو لنا هذا الموقف ؟

فى رواية « أديب » كان الراوى «البطل» مهيأ منذ البداية وهو يستعد للسفر الى فرنسا للاستلاب . فقبل السفر قطع كل صلة وجدانية تربطه بمصر وبالحياة فى مصر وعلى هذا النحو نفهم طلاقه لزوجته رغم حبه لها (40) وحالما انتقل الى فرنسا واغرق فى الحياة الاروبية تهيأت له المعادلة التقليدية « شرق غرب » وهى معادلة قائمة اساسا على التناقض :

الشرق ـ الغرب
الخمول ـ الحركة
الموت ـ الحياة
الجهل ـ العلم
اللانظام ـ النظام
اللاغاية ـ الغاية

(*) انظر « الفكر » ع : 3 ـ س : 29 ـ ديسمبر 1983 .
(40) انظر « انا أحيا » ص 90 .

ولكنه سرعان ما يعثر على الحل ، فينتصر للغرب ويؤمن به وينبهر بقيمه واخلاقياته ويحس انه فى الحرب احد طرفى الصراع (41) ولكنه وهو فى نشوة الانصهار بدأ يعى التمزق فهو يملك نفسين « نفسا تأنس الى الفرنسيين وتجد اللذة فى عشرتهم واحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ونفسا اخرى متشوقة ابدا ، ملتاعة ابدا تحب ان تسمع صوتا مصريا صادقا (42) بيد ان هذا التمزق سرعان ما يتحول الى ازمة ، فقد ادرك انه مهما حاول لن يفلح فى الانصهار ، فهو يحمل من شرقه بذرة اللانظام واللاغاية ولكنــه فى بيئة « لا يصلح فيها الاضطراب ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة فقد ادرك انه لم يحسن « لقاءها » ولم يحسن « احتمال الاثقـال فيهـا » ولـم يحسن « الخضوع لما تفرضه من نظام واطراد » (43) وتنتهى الازمـة فى نهاية الرواية بمأساة ، فقد مر البطل بحالة جنون انتهت بموته ، وهكذا كان البطل كالفراشة التى عشقت النور فأحرقتها النار ، ضحية الغرب المأساوية .

ان الموت او الانتحار هو النتيجة الحتمية للمستلب . ذاك ما حدث ايضـا فى رواية « الاشجار او اغتيال مرزوق » لقد عاش منصور عبد السلام مستلبا ، فهو يشبه كاترين فى كل شىء ، فى الاكل والرقص والموسيقى ولقد نعود على حياة الغرب واصبح واحدا من اهله (44) كما ذكره مستريجى الفرنسى وهو فى بعثة الآثار بكاترين وبالايام الدافئة فى بلاد الثلج عن طريق القيثارة الغربية التى اراد ان يتعلم العزف عليها (45) ولهذا السبب ولغيره من الاسباب يموت منتحرا وكذلك يظل الراوى فى « الفلاح » فى حنينه فلا يخرجه منـه الا الفلاح ابن الارض الطيبة الذى ما سافر قط وما عبر حدود الوطن (46) .

---

(41) يقول فى رسالة لزوجته: «لم استطع أن أوثرك على أوربا فابقى معك ولم استطع ان اطمئن الى انى ساكون وفيا اذا عبرت البحـر فاحتفظ بمـا بيننا من صلة الزواج » انظر أديب ص 113 ، يقول البطل قد اتعرض للضر وقد اذوق لذة الجوع وما ارى بذلـك باسا فـان معى ملاييـن سيتعرضون لهذا الضر وسيذوقون هذه اللذة وما احب ان اسعد وهم اشقياء ولا ان اشبع وهم جياع اديب ص 158 .

(42) أديب ص 154 .

(43) أديب ص 169 .

(44) انظر الاشجار ص 188 .

(45) الاشجـار ص 261 .

(46) انظر الفـلاح ص 4 .

ان الروائيين فى هذه الروايات يشخصون هذا الموقف عبر ابطالهم ، ولئن وقفوا موقف النقد والتشخيص فانهم يشهدون على ظاهرة تسم الشخصية العربية المعاصرة .

3) الموقف النقدى :

بين الموقفين المتناقضين تجاه الغرب موقف ثالث يسعى الى تصحيح العلاقة بين الشرق والغرب ويتبنى هذا الموقف سهيل ادريس والطيب صالح .

فلئن كانت جانين مونترو رمزا لاوربا المأزومة التى افل نجمها والتى « تبطن ايديولوجية عمادها نظرية العود الابدى التى تجعل من التاريخ دورا متعاقبا من الثأر والثأر المضاد وترى لذلك ان يقظة الشرق لا تتم دون أفول الغرب » (47) فان اوروبا تظل « معلمة » دون ان تكون « مستلبة » فأدبنا بحاجة الى مثل هذه النزعات الثورية « وما تمناه الراوى » ان يترجم « هذه المسرحية (العادلون) يوما » (48) وتظل جانين نفسها « الصورة التى تبحث عنها » روح الراوى منذ زمن بعيد (49) وقد علمته ان يكون عربيا شريفا (50) وكذلك يقف سامى فى رواية « أصابعنا التى تحترق » موقفا نفعيا من الحضارة الغربية ، فالتعامل هو اساس العلاقة مع الثقافة الغربية مهما كان لونها وعلى قدم المساواة سعيا الى مصلحة الفكر العربى (51) ولكن المنطق النفعى يرفض الاستلاب ويتبنى النقد فعندما علم سامى ان المؤسسة التى يعمل فيها تهاجم الثقافة الارجوانية تركها معتقدا ان الثقافة الارجوانية لا تتمتع بحرية الفكر وهذا مأخذ رئيسى .. عليها ولكنه رأى « ان الثقافة الغربية قد تحرم ايضا من حرية الفكر وتتجه اتجاها يمينيا رجعيا » (52) .

---

(47) جورج طرابيشى « شرق وغرب ، ذكورة وانوثة » ص 110 .

(48) الحى اللاتينى ص 88 .

(49) الحى اللاتينى ص 115 .

(50) راجع الحى اللاتينى ص 252 .

(51) « انظر اصابعنا التى تحترق » دار الآداب بيروت ط 1967 ص 157 .

(52) انظر « اصابعنا التى تحترق » ص 156 .

وفى « موسم الهجرة الى الشمال » يتكامل موقفا الراوى ومصطفى سعيد ، فهذا الراوى يدعونا الى اخراج « الغرب » من اطار القداسة والتعظيم الذى وضعه فيه الشرق والوطن العربى خاصة بحكم عصور التفوق الحضارى . واذا كان مصطفى سعيد يرد على العنف الاروبى الذى عاشه بذاكرته التاريخيــة الطويلة بالعنف فان الراوى يرى ان هذه اعادلة التى لا تزال تقر عليها أروبـا معادلة ستتغير بحكم الصيرورة التاريخية . فالاستعمار سيتحول مـع مرور الزمـن الى خرافة عظمى وسيتحقق ذلك الحلم الذى عاش من اجله مصطفى سعيد فى لقائه المأسوى مع جين موريس ، فقد عاش لحظة فريدة على حد عبارة استاذنا توفيق بكار كانها خارجة عن هذا الزمان ماحية لما قبلها وما بعدها يتطهر فيها الحب من الاخطار الموروثة وسيمر عن الاباطيل الى قمة الصدق . لقد عظم سعيد فى عين جين لانه وهو يقتلها قد استطاع ان يرتفع عن ذلته التاريخية كمستعمر الى مستوى الكرامة الذاتية والعزة الحضارية وكبرت هى فى عينه لانهـا اذ قبلت منه الموت بذلك السخاء . قد ارتفعت عن كبريائها العرقية الى درجة المرأة العاشقة والانسانية الصافية ، فكان التساوى بينهما لاول مرة والتطابق الذى هو منتهى الحب وما كان ليكون الا بالموت الا فى الموت (53) .

وفى النهاية يبدو موقف توفيق فياض ــ الروائى الفلسطينى ــ مـن خلال روايته « حبيبتى ميليشيا » موقفا انتقائيا ، ففى الغرب الطيبـون المضللـون والمظلومون . ولذلك فدهرية ايضا لا ترفض بل تسعى الى الدنو مـن المجتمع الغربى قصد افهامه والاستفادة من موقفه لكسب قضية الحرية (54) .

هكذا يبدو لنا الغرب فى علاقته بالشرق كمـا يصـوره الروائى العـربى المعـاصر .

محمـد البـاردي

---

(53) الثابت والمتحول « موسم الهجرة الى الشمال » عيـون المعاصـرة ــ دار الجنوب للنشر 1979 ص 21 .

(54) انظر « حبيبتى ميليشيا » ص 117 وخاصة العبارة « يا صديقتى الطيبة والمضللة » .

مطالعات

قراءة لأشعار "كتابات على حائط الليل"

بقلم : رمضان لطيفي

جاء العدد 27 من منشورات « الأخلاء » التي يديرها الشاعر الصادق شرف يحمل مجموعة شعرية لعبد الله مالك القاسمي تحت عنوان : « **كتابات على حائط الليل** » .

هذه المجموعة مقسمة الى قسمين ، قسم من الشعر الحر ، وقسم إبداعي ، والقصائد الابداعية استهلها الشاعر بومضة شاعرية لمحمد أحمد القابسي « **واحد قلبي وكثيرة أعراس الموت** » .

هذه الومضة المدخلية اعتراف من القاسمي لمكتشف موهبته النثرية الشعرية بعد تحوله من مرحلة الاغتراب عندما كان يكتب شعرا بالفرنسية ، ومحمد أحمد القابسي هو الذي احتضن هذه التجربة عندما كان محررا بجريدة « بلادي » فعبد مالك القاسمي يكتب بماء الحريق ... شجرة يسري في عروقها نسغ التعب يلاقحها الوجع المر فيثقل فروعها بفاكهة العذاب ...

فما أروع لحظات الاثمار عند هذه الشجرة المعطاء ! وهي تقف في مهب الرياح : « بعيدة عن حمى البيانات التي تكبل الابداع » .

وشاعرنا ينحت بازميله صوره الشعرية فتنساب رشيقة تغمرها شفافية مرهقة كأنها مكتوبة في لحظة ما بين الحلم واليقظة ،، والقاسمي يلغي مدلول الكلمات المتعارف عليها محاولا اخضاعها لتجربته الذاتية فتفرز على يديه خصوصية شعرية متفردة في أكثر الحالات رغم تأثره ببعض الشعراء الرواد

كما تفطن لذلك الاخ محمد بن رجب فى عرضه لكتاب على صفحات جريدة « الصباح » .

.. ومن القصيدة الاولى فى المجموعة تغمر القارىء النزعة الصوفية فتتضوع رائحة العنبر والمسك .. ويبدأ الشاعر تطريز السجاد ... ليصلى لآلهة الشعر صلاته الاولى ،

آلهة الشعر
- مهلا -
لا ترتحلي
....
هاتي
فأنا الصوفى المتعبد فى خلواته - ص 15 -

-. فى هذه الباقة الشعرية تتكرر عدة مفردات مثل : **الله - الخمر - الملكوت - الوجد - الروح - المولى - السجاد - الصوفى - التجلى** - .

وهى كلمات مستهلكة فى قاموس التجربة الصوفية ... الا أن القاسمى يصعد الشطحات الصوفية بالاضافة لا بالمحاكاة وقصيدة **قراءات أولى فى سفر التوحد** ترتقى سلم الابداع الصوفى ... فيتوحد فيها - الحسي بالجوهر - ومن التقنيات المستعملة عند الشاعر « فلاش باك » وهى **طريقة** سنمائية بدأ استعمالها حديثا فى الشعر ، بطريقة « الفلاش » ينقل لنا القاسمى بعدسته مشهدا دراميا يتحرك ببطء يهز الاعماق ويعطى اشارة ضوئية حمراء فى طريق المبدعين ...

كنا ...
خلف جنازة شعر نمشي
نحمل تابوتا للشمس
وقد غاب نهار - ص 21 -

هذه اللقطة السنمائية الدرامية تظل من أروع الصور الشعرية والنثرية التى تعبر عن منور صمادح المأساة المتحركة فى شوارع العاصمة ، والقاسمى فى قصيدته النثرية : **مرايا الحلم** المهداة الى صديقه الشاعر عبد الحميد خريف يقفز القاسمى فوق الاخوانيات **يشق المتاريس يعبر حدود الانتماء** ليلتحم بموقف انسانى لا يصدر الا عن نفس شاعرة بما فى هذه الكلمة من معنى ، ففى سنة 1978 تاريخ كتابة هذه القصيدة : كان عبد الحميد خريف يعيش فترة عصيبة يلفها الضياع والمرارة ... فتالم القاسمى لذلك وتحرك

ضميره وقلمه وأفرز قصيدته التى تنبأ فيها بانقشاع الغيوم وعودة الهدوء والطمأنينة فى درب حياة رفيقه عبد الحميد فيقول :

غـدا ..

تعـود الحمـائم تلـوح بمناديلهـا للعـاشقين

وفى هذه القصيدة بالذات جنوح الى البادية حيث الطهر والنقاء :

يـأتينى مـن خلـف المتـاريس صـوتك البـدوى

يشـق المتـاريس ... يعبـر حـدود الانتمـاء ــ ص 64 ــ

الطفـولـة : يقول بودلير :

العبقـرية هى الطفـولة المستعـادة قصـدا

ويقول سمير الحاج شاهين عن رامبو :

.. هو طفل عاجز عن بلوغ مرحلة النضج والرجولة ...

والنعمة التى اغدقتها عليه الطبيعة بسخاء هى أسطورة الطفولة .

وعبد الله مالك القاسمى عكس «رامبو» فهو شاعر ناضج يغازله حنين الى الطفولة نبع البراءة والنقاء وهذا الجنوح الفطرى للطفولة ليس بغـريب عـن الشاعر التونسى بدءا من الشابى ...

يـا مملكـة الاطفـال

يـا مملكـة الشـذا والنـدى

إنـى أطـرق بـابك

أفـر إليـك ــ ص 60 ــ

مـوال رأس السنـة ــ قصيدة تنقل لنا حالة المدينة وهى تحتفل بحلول رأس السنة الميلادية ، ومن التصوير الفنغـرافى والنفسى يصطدم القارىء بعري الواقع المخزي لشباب غارق حد النخاع فى التذيل وراء الغرب ، وتطفو على سطح الواقع فى هذه القصيدة المرأة العربية الغارقة فى أتبية الخطيئـة المرأة السطحية والسلبية التى أفرزها الانبتات الحضارى (وهى غجرية تحرث الليل وتزرع الشهوات) :

وهـذى فاطمـة البدويـة

تمـزق الخمـار والاستـار

تسـرح نهديهـا مـن حبـس الازرار ــ ص 68 ــ

والمرأة فى مجموعة القاسمى تتداخل فى إثنينية متناقضة بين الواقع والرمز ، ففى حضورها الرمزى تكون غيمة وحبيبة فمطرا وهى التغير الجذرى لمنطق القوة السائد والحيف الاجتماعى ... تبدو هذه المرأة مكبلة مسكونة بالليل بالتيه بالضياع مطوقة بخيوط العنكبوت (بينها وبين التوهج لحظة دم) :

فيا امرأة مسكونة بالليل والتيه
كيف تتشوفين المدى
كيف تبصرين الثنايا
وقدامك ... تنسج العناكب بيوتها – ص 70 –

الواقع العربى : فى قصائد القاسمى حضور مكثف للواقع العربى المشلول فيستحضر الشاعر الجانب المضىء من التراث الذى لا يمحى من الذاكرة العربية للاتعاظ به دون السقوط فى النظرة التمجيدية لهذا التراث :

قف لحظة ...
أحدثك عن صلاح الدين
وعن القبائل التى مرت من هنا
قف لحظة
أحدثك عن النخوة العربية – ص 71 –

والى جانب استحضار التراث هناك تعرية للمجتمع العربى الراسف فى سلاسل التعفن والغارق فى الرجس وأبار النفط ...

قد ضيعتنا الليالى
وعلب القمار ... وأجساد النساء
قد ضيعتنا عكاظ ..
ودوختنا روائح المعدن – ص 73 –

(ومن الحى العربى الكبير تخرج طفة باكية دامعة مشوهة الوجه) :

ولما بكت طفلة الحى بيروت
لما بكت – كلها من عطور الصبايا
مدائن عشقى خلت – ص 47 –

وانتفاء العطر من مدائن الشاعر هو انتفاء الحب والنبض والحياة عن بيروت الصاخبة والهادئة... الغارقة في الوحل والملطخة بدم الخطيئة ... والقاسمي يعي المرحلة بادراك ، ومن خلال وعيه للاشياء طفت على جانب هام من أشعاره المسحة السوداوية :

تروعني أيام العمر
تمتد نحوي
ترسم بالفحم ،، وجهي ،، قدري – ص 77 –

ومن اللوعة والألم يخرج صوت القاسمي مناديا حبيباته مستفسرا عن موعد المخاض :

... فانادي من لوعة الحب – الغضب
كل حبيباتي ...
آه .. طالت مواسم الحمل الكاذب ... طالت
متى يأتي المخاض – ص 78 –

لكن النداء يتبخر فيصطدم الشاعر بخيبة مريرة يتضح هذا من خلال القصيدة الاخيرة بالمجموعة ، وينسى القاسمي أنه بشرنا بميلاد طفل عربي يخرج من ذاكرة الاشياء :

طفل عربي
يخرج من تحت الانقاض
ينهض من ذاكرة الاشياء
مسكونا بالغضب ...
مغسولا بدم الشهداء – ص 44 –

– تبقى هذه القراءة مساهمة مني فى تحريك السواكن ، ودعوة ملحة للنقاد الاكاديميين للالتفات الى ما يصدر من حين لآخر من مجموعات شعرية وقصصية واعدة ومبشرة بميلاد جيل جديد مسكون بالتأسيس والاضافة .

رمضان لطيفي

قراءات سريعة

• **القصة القصيرة فى سورية :**

صدر عن منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومى بدمشق بتاريخ 1982 كتاب عن القصة القصيرة فى سورية (تضاريس وانعطافات) للدكتور حسام الخطيب .

والكتاب محاولة انتقائية – لا حصرية – لوضع معالم وإشارات بارزة متميزة يمكن أن تنير السبيل لبناء هيكل عام شامل لوضع القصه القصيرة السورية وتاريخ تطورها من المحاولات الاولى الى مظاهر نضجها ويحتوى على أربعة فصول :

الفصل الاول خاص بمجموعة الدكتور عبد السلام العجيلى «بنت الساحرة» الصادرة سنة 1948 والتى يعتبرها الدكتور الخطيب « إعلانا عن بدء اسراء فن جديد متميز فى التجربة الادبية بالنسبة للقطر العربى السورى » .

وانطلاقا من هذه المجموعة يحاول الدكتور الخطيب استكشاف الفن عند العجيلى فينتهى الى أنه « محاولة دائمة لاستكشاف الحياة وأسرارها التى هى فى عالم العجيلى القصصى مفعمة بالغرابة والغموض والتعقيد والتداخل » .

وقصص العجيلى ابتداء من هذه المجموعة الاولى تضعنا على بساط الدرس المشاكل البسيطة والمعقدة فى آن واحد للنفس البشرية المتأرجحة بين الواقع والحلم بين الوعى واللاوعى بين تقارير الحلم وشطحات السحر بين وضوحية الصحة وضبابية حالات المرض ... هذه الحالة التى تضعها دائما بين بين فى مرحلية مستمرة لا استقرار فيها سوى قوتها الدافقة المكبوتة التى لا تجد متنفسا أو تحقيقا الا فى حالات المرض أو الحلم أو تحت تأثير المخدرات أو المنبهات والمثيرات أى فى حالة اللاوعى .

ولا ننسى فى قولنا هذا أن العجيلى دكتور فى الطب ينظر دائما الى الاشخاص نظرة الطبيب النفسانى .

الفصل الثانى يحاول فيه الدكتور الخطيب أن يبين الصلة الوثيقة بين نشأة فن أدب القصة القصيرة والظروف التاريخية السياسية والاجتماعية

والثقافية في مرحلة الخمسينات السورية بالذات لانها تقدم حالة فريدة من ناحية التفجر والتصارع معا اللذين كانا يسوسان القطر السورى آنذاك .

وبعد أن يمهد الدكتور الخطيب بالمنهج والتعرض الى المرحلة الاولى أى مرحلة النشأة فى الثلاثينات يتناول نشاط الانتاج الادبى ثم الاتجاهات والتجمعات الادبية الجديدة القصة القصيرة ثم الرواية وبدء التشعب الفني حتى بلوغ المرحلة الاخيرة حيث تتبوأ القصة القصيرة الصدارة .

الفصل الثالث « فى تبعات المعالجة القومية » فى القصة القصيرة يجتهد فى توضيح الربط الجدلى بين نشأة القصة القصيرة وتفتحها والهم القومى أو الوطنى أو الاجتماعى بما فى ذلك الاتجاه السياسى طبعا والنضالى خاصة (النضال الفلسطينى ـ الحرب التشرينية ...) والمناسبات القومية .

والخلاصة على حد قول الدكتور الخطيب :

« ما أظن أن القصة ـ شأنها فى ذلك شأن الانواع الادبية الاخرى ـ لا بد من أن تتجه باتجاه تحقيق التفاعل الاصيل بين الهم الفردى والوجدان الذاتى من جهة والهم الاجتماعى والوجدانى القومى من جهة أخرى بحيث يأتى الالتزام نتيجة طبيعية للمعاناة الخاصة والعامة وتعبيرا حرا عن الصوت الخاص والصوت العام فى وقت واحد » .

الفصل الرابع يتناول فيه الدكتور حسام الخطيب ما يسميه « قصة القصة وهو عرض عام وملاحظات موضوعية قاسية احيانا فيما يخص القصة القصيرة الصادرة من عام 1977 الى عام 1979 فى المجلات كـ « المعرفة » وبصورة خاصة « الموقف الادبى » وخلاصة القول : إن كتاب الدكتور حسام الخطيب عن « القصة القصيرة فى سورية » كتاب هام جدا للتعرف الحقيقى الموضوعى على ميدان القصة القصيرة فى سورية لا بد من الاطلاع عليه والتعمق فى فحواه ووضعه فى مكان ممتاز فى المكتبة العربية الادبية الحديثة .

• **الجبهوت :**

مجموعة شعرية باللغة الفرنسية صدرت عن الدار التونسية للنشر ـ بتاريخ مارس 1983 ـ للصديق الشاعر الاخ عبد العزيز قاسم بعنوان (Le Frontal) وليسمح الاخ الشاعر ترجمتنا له « بالجبهوت » ـ إن لم يكن عنها راضيا ـ إذ أردنا منها الاشارة الى معانى التحدى والتأكيد عليه لا الى معانى التعذيب .

وإن تعرضنا الىهذه المجموعة فاننا لا ندعى قط الالمام بثرائها المعنوىوعمقها الروحى وجمالها اللغوى فمن المسلم أن ذلك لا يتسنى تماما بالنسبة للشعر الذى يجب أن يكون عامل إيحاء متجدد .

لكن يمكننا ويجدر بنا ابراز بعض المعانى الهامة الواردة فى زفرات الشاعر الملتهبة وكيف لا نتفاعل مع تعـاذيب الـذهن فى تشتتـه الفكـرى والحسى واللغوى وكيف لا ندرك تلك الخيانة الكبرى ـ من الداخل ـ للاصالة العربية أو تلك العبثية للتوق الى الحرية وذلك التشرد الثـابت السكـون وكيف لا تنفعل مع تلك الثورة العارمة على كل ما سيقيد الحرية ويغل الفكـر وكيف لا نتبين تلك الرؤية الضابية التى نريد أن تكون جلية لمآل العالم العربى .

وبالرغم من تلك الاستعارات المتواصلة التى لا يبقى معها أى امتلاك إننـا لنشعر بالتشبث بالجذور والحنين الى الجدود وفوق كل ذلك يحلق التفكير فى مفهوم القول والاحجام عنه،وأخيرا ذلك القصيد العجيب «دريسدن» (Dresden) الذى يذكرنا بمآس عديدة فى التاريخ أهمهمـا هيروشيمـا وقديما قـرطاج وقعت معجزة التغلب عليها بفضل الاباء وارادة البقاء والايمان بالانسان .

◆ **ديـــوان الأفـغـــانـــى :**

صدر بعمان (الاردن) بتاريخ 1983 ديوان للمرحوم الشاعـر الفلسطينى محمود الافغانى الملقب بشاعر شباب فلسطين ذلك اللقب الذى كان يحرص عليه طيلة حياته والى آخر أيامه والذى كان وفيا له فثوى معه ولم يحمله شاعر آخر بعده .

والديوان كله وفاء لوطنه فلسطين وحنين اليه فى غربته وان لم تكن غربة بأتم معنى الكلمة إذ كان يعيش قريبا منه بعمان لكنه بقي يحن دائما الى يافا مسقط رأسه المفقود والى فلسطين وطنه السليب الجريح المعذب فيشتكى له :

وطـنـــى إلـيـــك المشتكـى فلقـد عـدوت بـلا جـنـــاح

ويتوعد الغاصبين :

عن قريب لسوف يأتى الحساب بيننا واليهود رأسا ـ فرأسا

فوطنه المفقود كل شىء ، هو أبدع الاوطان حتى انه يجعله مفضلا على الجنات والفـراديس :

موطنى يـا موطنى ما أبدعك ! أى فـردوس يحـاكى أربعـك
كل جنـات الـورى فى أعينى لم تكن شيئا اذا قيست معك

وحسب ما نعرف عن غزارة انتاج الشاعر محمود الافغانى ما نظن الا أن هذا الديوان دفعة أولى فقط من شعره قد تتلوه دفعات أخرى إن شـاء اللـه وسيكون ذلك من أنجاله وفاء له ووفاء للوطن الفلسطينى .

◆ **هــزل وجــد :**

فى سلسلة « مكتبة الجميع » أصدرت الشركة التونسية للتوزيع كتـاب « هـزل وجـد » للصديق الاخ نور الدين صمود وهى مجموعة كتابات هادفة

نشرت أول ما صدرت في مجلة « الاذاعة والتلفزة التونسية » ما بين سنوات 1974 و 1976 .

ولقد ألهم الاخ الشاعر كتابتها ثم دعى الى نشرها وهي في شتى المواضيع الادبية والاجتماعية والاخلاقية والدينية والعلمية وغيرها لكن يجمعها كلها كيفية عرضها في بساطة وأحيانا في عفوية تمزج الجد بالهزل تخفيفا عن القارىء أو المستمع وعودة الى نهج القدامى الذين كان في مقدمتهم دون منازع أبو عثمان الجاحظ .

فنقول لصديقنا نور الدين بوركت في جمع هذه الاحاديث المعدومة أمثالها أو تكاد في الادب العربي المعاصر فزدنا منها في زمن نحن فيه في أشد الحاجة الى الترويح .

• **الحمامات :**

كتاب للتعريف بمدينة الحمامات لابنها البار ورئيس بلديتها السيد محمد بوذينة بالاشتراك مع الدكتور العروسي المنقعي للتعريف بها تاريخا منذ تأسيسها قديما وحديثا ، ونضالا وأنشطة ومعالم أثرية وسياحية .

والكتاب في قسمين عربي وفرنسي في محتوى واحد اذ أحدهما ترجمة للآخر وبالكتاب لمن يطلب المزيد قائمة مصادر ومراجع عربية وفرنسية .

• **الاسلام اليوم :**

صدر العدد الاول من مجلة جديدة دورية تصدرها المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) بعنوان : « الاسلام اليوم » بالرباط مقر المنظمة .

وهذا العدد الاول الصادر في ثلاث لغات : العربية والانقليزية والفرنسية يشمل مع التعريف بالمنظمة إيسيسكو (وثائق الندوة التأسيسية للمنظمة وأخبارها) واستجواب للاستاذ عبد الهادي بوطالب المدير العام للايسيسكو والتعريف بالبلاد الاسلامية (المملكة العربية السعودية ـ جمهورية غينيا الشعبية الثورية) يشمل مع ذلك دراسات هامة جدا خاصة بشؤون العالم الاسلامي هي كما يأتي :

① ـ دراسات باللغة العربية :

أ ـ مركز الحضارة الاسلامية (حيدر آباد) لأحمد العناني .

ب ـ الاصول التاريخية للفكر العربي الاسلامي للدكتور توفيق سلطان اليوزبكي .

ج ـ الزراعة والبيطرة عند المسلمين للدكتور علي المجدوب .

② ـ دراسات باللغة الانقليزية :

أ ـ الوجوه التربوية للتنمية فى أقطار المؤتمر الاسلامي للدكتور أكمل الدين احسان أغلو والدكتور محمد اسلام .

ب ـ الازمة الحضارية المعاصرة والموقف الاخلاقى للاسلام فى العلوم للدكتور محمود الذوادى .

ج ـ الترميم الاخير للكعبة المشرفة للدكتور أمل إسيين .

③ ـ دراسة باللغة الفرنسية :

ـ الاقليات الاسلامية للدكتور علي الكتانى مدير المنظمة الاسلامية للعلوم والتكنلوجيا والتنمية بجدة (المملكة العربية السعودية) .

محسن بن حميده

• فى سبيل وحدة المغرب العربى الكبير : للاستاذ محمد مزالى :

صدر عن مصلحة الصحافة والتوثيق بالوزارة الاولى كتاب قيم يحمل امضاء الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول والامين العام للحزب بعنوان : « اعلام فى خدمة الشعب » وهو يشتمل على خطب كان ألقاها الوزير الاول فى العديد من المناسبات وهذه الخطب تتسم بعمق النظر وسداد الرأى ويتضح ذلك منذ الصفحات الاولى حيث خصص الخطاب الاول لتحديد دور الصحفى الملتزم مبرزا أهمية التصرف والمثالية سلوكا وصدقا بالنسبة للعمل الصحفى المتميز ويشتمل الكتاب على المحاضرة التى ألقاها السيد محمد مزالى بمناسبة الاحتفال بالذكرى 20 لتأسيس وكالة تونس افريقيا للانباء يوم 30 جانفى 1981 م وكذلك نطالع به كلمة الافتتاح فى ندوة خبراء الاعلام للدول العربية ببنزرت فى سبتمبر 1967 وكذلك نقرأ وظيفة الاعلام فى المجتمع التى ألقاها الوزير الاول فى اختتام اشغال الدورة الرابعة للمجلس الأعلى للاعلام فى 31 مارس 1981 م وايضا كلمة الوزير الاول فى افتتاح الدورة 21 لاتحاد هيئات الاذاعات والتلفزات القومية الافريقية فى 4 فيفرى 1981 م ولا شك ان هذه الخطب تعد دستورا للصحفى المتميز بحق حيث يقول الاستاذ محمد مزالى : « وقد يوثر بعض الكتاب ان يقضوا أوقاتهم فى كتابة المقالات عن الجنس وحياة مشاهير الفنانين والفنانات الخاصة وعن أمور أخرى تافهة لان هذا يتجاوب مع ذوق عدد كبير من الناس ويشبع فضولهم ولكن اصعب من ذلك وأشق أن يلعب الصحفى دور الموجه المصلح والمربى الصادق اى ان يلتزم القيام بدور الأب مع الابن والمعلم ازاء التلميذ والزعيم المخلص أمام شعبه والرائد فى قومه » .

محمد العايش القوتى

أصداء الفكر

● **المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات « بيت الحكمة » :**

احدثت المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بمقتضى قانون صادر بالرائد الرسمي للجمهورية التونسية .

وهي مؤسسة عمومية ذات صبغة ثقافية تتمتع بالشخصية المدنية ، والاستقلال المالي وتخضع لاشراف وزير الشؤون الثقافية . وهي تقوم مقام أكاديمية في مجلسها العلمي وتعمل كمؤسسة علمية ، غايتها الاسهام في اشعاع تونس الثقافي على الصعيد الدولي وربط الاواصر مع المؤسسات العالمية الشبيهة بها وتكثيف الاتصال بالعلماء في العالم ، الجادين في اقامة حوار مجد بين الحضارات وتعاون مثمر بين الثقافات .

ان دور المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات شبيه بدور الاكاديمية لان مهمتها الرئيسية هي استكشاف ما في ميداني الادب والفن من مستحدثات والمساهمة في التقدم بالفكر العلمي وتطبيقاته بضروبها المختلفة . والسعي الى التعريف بالخلق الادبي والفني الرفيع والاهتمام بميادين الثقافة كلها والانتفاع بتجاوب الامم في هذا المجال واشاعتها ، والمؤسسة تشتمل على مجلس علمي هو نواتها ، ويتركب هذا المجلس من اعضاء قارين وآخرين مشاركين يتمتعون بمنزلة علمية ممتازة في أهم حقول النشاط الفكري والثقافي والعلمي أو اشتهروا بالخدمات الجليلة التي أدوها للانسانية.

وبذلك ستصبح المؤسسة اطارا ملائما للتفكير الجاد والحوار الخصب ، واللقاءات المثمرة وبها يتسنى لتونس – وهي تصغي الى ما يجد في الكون – أن تبرز مع تقدم الزمن وبفضل العزائم الصادقة تقديرها الحق عطاء الانسان لأخيه الانسان .

وتعتبر المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات مؤسسة علمية تهدف الى تنظيم حركة الترجمة نقلا وتعريبا ، وقد انشات هيكلا مخصوصا ضمن هياكلها الاساسية يدعى « المعهد الوطني للترجمة الادبية والعلمية ووضع المصطلحات » لايمانها بضرورة الانكباب على هذا النوع من النشاط العلمي ، اذ لا يخفى أن التشجيع على الترجمة يسهم بقدر كبير في اثراء

التراث الانسانى بخصائص نتاج الثقافة العربية ومميزات الحضارة الاسلامية ويمكن كذلك من التعرف الى كنوز الثقافة العالمية .

ومن وظائف المؤسسة باعتبارها مؤسسة علمية توجيه الدراسات والبحوث قصد تحقيق النصوص تحقيقا علميا . لصيانة التراث واثرائه وابرازه ضمن هيكل آخر أطلق عليه اسم « معهد تاريخ النصوص وتحقيقها ودراستها » .

وبذلك يتم لتونس ـ وهى تملك مخطوطات ثمينة لم تفتأ تحافظ عليها وترعاها ـ أن تعرف فى منشورات علمية بكنوز الثقافة التى جهدت فى انتقائها أجيال عديدة وبقيت فى طوايا النسيان . وستسعى المؤسسة فى اهتمامها بالدراسة العلمية ، والاشعاع الثقافى على نطاق واسع الى دعم اللغة العربية باعتبارها أداة تعامل فى مستوى عالمى فكريا وعلميا ومعرفياً .

وحرصا من المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) على أن تضم الى العاملين فيها نخبة من الجامعيين وغيرهم ممن تميزوا فى ميدان البحث والخلق والابداع فانتجوا اعمالا طريفة وطلائعية ، فانها آثرت أن يكون من بين هياكلها « مخبر التجديد والابداع » وهو منطلق لكل عمل ثقافى ينحو منحى التعمق فى البحث العلمى فى هذا الميدان ويستعمل المستحدثات التقنية والآلات سواء فيما يتعلق باللغة أو سائر الفنون وذلك بالتقصى والاستكشاف لا النظرى فقط بل بالتطبيق المخبرى التجريبى

وستسعى المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ بيت الحكمة ـ الى حث العلماء المختصين ، على التأليف فى كل ميادين الثقافة ، أدبا وفنا وفكرا حتى يتم التعريف بما ساهمت به تونس من عمل خلاقيها ومبدعيها ومفكريها فى الثقافة العربية الاسلامية وفى الحضارة الانسانية بصورة عامة .

ان المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات ـ بيت الحكمة ـ باعتبارها أكادمية ، ومؤسسة للدراسات والبحوث ، ومركزا للثقافة غايتها القصوى نشر حصيلة اعمال هياكلها ، هى أداة ملائمة للاشعاع الثقافى التونسى ومجال فسيح للتعاون الثقافى الدولى تنصهر فيه الخبرات والتجارب المختلفة . ففيها تنجز اعمال الترجمة والدراسات وتبرز التحقيقات النقدية وتضبط تجارب الخلق والابداع ، والتجديد وتعد التآليف المتعلقة بفنون الثقافة وهى فى ذلك كله تكون ملتقى متواصلا للادباء والفنانين من بلاد العالم .

وبهذه المؤسسة سنبرز على مر الايام دور تونس فى تأصيل الحوار بين مختلف الحضارات ، بوصفها بلدا ذا ثقافة عربية واسلامية ساهم فى اثراء التراث الانسانى ، وبلدا افريقيا متفتحا على البحر الابيض المتوسط .

وقد احدثت هذه المؤسسة بمقتضى قانون عدد 90 سنة 1982 صادر بالرائد الرسمى عن رئاسة الجمهورية التونسية بتاريخ 20 ديسمبر 1982 بعد موافقة مجلس النواب .

وبمقتضى هذا القانون تكلف المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بصفتها مؤسسة عمومية ذات صبغة ثقافية بالقيام بكل أعمال التفكير والدرس وبالابتكار المتعلقة بميدان الآداب والعلوم والفنون وبكل المهام التى يقتضيها العمل الثقافى والفني .

وقد كان يوم 6 ديسمبر يوما مشهودا اذ التأمت فيه لاول مرة الدورة الاولى للمجلس العلمي وتحت اشراف الرئيس الحبيب بورقيبة ورئاسة الاستاذ محمد مزالى الوزير الاول وألقيت فيه كلمات عديدة تجدون ملفا خاصا بها فى أول هذا العدد . وفى يوم 7 ديسمبر تشرف أعضاء المجلس العلمي باستقبالهم من قبل الرئيس الحبيب بورقيبة وألقى السيد البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية كلمة هذا نصها :

يا فخامة الرئيس ،

إنه لشرف عظيم أن أقف ، يا فخامة الرئيس أمامكم ، لأشكر سيادتكم باسم هذا الجمع الكريم على ما تفضلتم به من استقبال لهذه النخبة من العلماء الأجلاء أعضاء المجلس العامي للمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) وانها لمنة من الله أن تبدأ هذه المؤسسة المجمعية أعمالها برعايتكم واشرافكم .

ولا غرو فأنتم يا فخامة الرئيس بانى هذه الدولة الفتية على أسس حضارية متينة وقد كنتم خضتم قبل ذلك طيلة أكثر من ربع قرن معركة ضارية من أجل تخليص شخصية هذه البلاد من التذبذب والتفسخ والاندماج وركزتم كفاحكم على المحافظة على خصوصية حضارة هذا الشعب وثقافته وعملتم على ابراز اسهامها فى الحضارة الانسانية بعظمائه وأعلامه ومؤسساته .

ولقد دأبتم فى تلك الفترة العسيرة التى لم تكن للامم الضعيفة فيها مجال للدفاع عن كيانها ، ولم يكن لصوتها صدى يذكر ، على تسخير قلمكم للاشادة

بحضارة هذه البلاد ، ولفت الانظار الى القيم الانسانية التى تتشبث بها والعزوف عن هوامش الاشياء وتافه الاحداث الى صلب قضية الشعوب الرازحة تحت العبودية الطامحة الى رفع نير الاستعمار . وكان صدق ما يكتبه قلمكم آنذاك لا يفوقه الا اخلاصكم له بالتضحية والكفاح اللذين لم يثنهما دم الشباب المتشبث بنعيم الحياة ورخائها. فكنتم مثال الكاتب الملتزم وضوح رؤية وسلامة طوية وعمق نفس وفضل اقدام .

وكنتم ولا زلتم ـ يا فخامة الرئيس ـ منذ أن تحملتم المسؤولية العظمى لقيادة الشعب التونسى على وفائكم لهذه القيم وايمانكم بالعمل على اثرائها فاوليتم التعليم عناية خاصة وبعثتم المعاهد التربوية بالعشرات واحدثتم المؤسسات ذات المستوى الثقافى العالى .

ثم ها أنتم تبعثون الى الوجود هذه المؤسسة الجديدة المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات وتعيدون بها مجد « بيت الحكمة » القديم تماشيا مع ما أردتم لتونس المعاصرة العصرية من تفتح على الثقافات الانسانية وتشبث بالمقومات الاساسية للشخصية التونسية العربية الاسلامية .

ستكون هذه المؤسسة ـ يا فخامة الرئيس ـ كما أردتموها ـ محط الرحال للعلماء من الدنيا قاطبة يتفاعلون مع علمائنا فى تونس وواحة علم للحلقات المتعددة من الدارسين والباحثين ترجمة وتحقيقا وتاليفا وتجريبا .

إن هذه المؤسسة يا فخامة الرئيس ستكون مثلما دعوتم الى ذلك فى عدة مناسبات مكانا يتم فيه حوار الثقافات على أوسع مجال وتتنافس فيه الهمم العلمية بأحسن صورة حتى تزول الحواجز بين الشعوب ويحل بينها التعارف والتآلف والأخوة الحقيقية .

اسمحوا لى ـ يا فخامة الرئيس فى ختام هذه الكلمة ـ أن أعبر لكم باسم أعضاء المجلس العلمى على الشكر الجزيل لهذه الرعاية والعناية بالعلم والعلماء والفكر وأصحابه والثقافة وأهلها وثقوا ـ يا فخامة الرئيس ـ أن هذه المؤسسة ستكون بتوجيهاتكم وحدبكم الدائم وبعزيمة علمائها الأجلاء الذين أتوا ـ مشكورين ـ من بلدان عديدة من العالم وارتضوا المساهمة فى أعمالها ستكون هذه المؤسسة بهياكلها وتنظيماتها الطريفة العملية ميدانا لاشعاع الثقافة وتفاعلها مع الحضارة الانسانية .

وإننا جميعا لمتيقنون أن هذه المؤسسة ستجد الدعم والتأييد الكامل من لدنكم وإننا سنكون معتزين ، بتقديم باكورة أعمال « بيت الحكمة » لسيادتكم في أقرب الأيام .

دمتم يا فخامة الرئيس ذخرا للعلم والعلماء وراعيا للثقافة وأهلها .

● **الاعضاء القارون للمجلس العلمي :**

الأعضاء المقيمون بالجمهورية التونسية : السادة :

1) الاستاذ محمود المسعدى ـ 2) الاستاذ الشاذلى القليبى ـ 3) الاستاذ البشير بن سلامه ـ 4) الاستاذ الدكتور أحمد عبد السلام ـ 5) الاستاذ الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ـ 6) الاستاذ عزالدين باش شاوش ـ 7) الاستاذ الدكتور عياض بن عاشور ـ 8) الاستاذ المحجوب بن ميلاد ـ 9) الدكتور أحمد بن ميلاد ـ 10) الاستاذ الدكتور عبد الوهاب بوحديبة ـ 11) الاستاذ الدكتور الشاذلى بويحيى ـ 12) الاستاذ الزبير التركى ـ 13) الاستاذ الدكتور هشام جعيط ـ 14) الاستاذ محمد فاضل الجمالى ـ 15) الاستاذ أحمد خالد ـ 16) الاستاذ الدكتور محمد السويسى ـ 17) الاستاذ الدكتور عمر الشاذلى ـ 18) الاستاذ ابراهيم شبوح ـ 19) الاستاذ الدكتور المنجى الشملى ـ 20) الاستاذ الدكتور محمد الطالبى ـ 21) الاستاذ الدكتور سليم عمار ـ 22) الاستاذ الدكتور الشاذلى العيارى ـ 23) الاستاذ الدكتور محمد فنطر ـ 24) الاستاذ الدكتور مصطفى الفيلالى ـ 25) الاستاذ الطاهر قيقة ـ 26) الاستاذ أحمد اللغمانى ـ 27) الاستاذ الصادق مازيغ ـ 28) الاستاذ الدكتور البشير المحجوب ـ 29) الاستاذ محمد العروسى المطوى ـ 30) الاستاذ صالح المهدى ـ 31) الاستاذ الدكتور عبد القادر المهيرى ـ 32) الاستاذ الشيخ محمد الشاذلى النيفر .

الأعضاء غير المقيمين : السادة :

1 ـ الدكتور أحمد طالب الابراهيمى : أديب ـ وزير الخارجية الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .

2 ـ الاستاذ الدكتور ناصر الدين الاسد : رئيس المجمع الملكى لبحوث الحضارة الاسلامية (مؤسسة آل البيت) عمان ـ الاردن .

3 ـ الاستاذ الدكتور أكمل الدين احسان أوغلى : استاذ ـ المدير العام لمركز الابحاث للتاريخ والثقافة الاسلامية باسطنبول .

4 ـ الاستاذ الدكتور ديتر بلمان : استاذ وباحث فى الدراسات الشرقية بألمانيا الشرقية .

5 ـ الاستاذ الدكتور رادى بوجوفيتش : استاذ الحضارة والآداب العربية بكلية الفيلولوجيا بجامعة بلغراد (يوغسلافيا) .

6 ـ الاستاذ الدكتور زهو بوهاد : باحث ـ رئيس قسم الدراسات الشرقية بمعهد البحوث فى الآداب الاجنبية ـ أكاديمية العلوم الاجتماعية بالصين .

7 ـ الاستاذ خليفة التليسى : أديب ـ رئيس الدار العربية للكتاب ـ أمين اتحاد الناشرين العرب ـ ليبيا .

8 ـ الاستاذ الدكتور شارل أندرى جوليان : استاذ ومؤرخ ـ عميد شرفى لكلية الآداب بجامعة محمد الخامس بالمغرب .

9 ـ الاستاذ الدكتور عبد العزيز حسين : رئيس المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء ـ الكويت .

10 ـ الاستاذ الدكتور س. ديلون ريبلاى : استاذ ـ مدير مؤسسة سميث سونيان واشنطن ـ الولايات المتحدة الاميركية .

11 ـ الاستاذ الدكتور محيى الدين صابر : المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

12 ـ الاستاذ الدكتور محمد عبد السلام : جائزة نوبل فى الفيزيا ـ مدير المركز الدولى للفيزياء النظرية ـ (ترياست)

13 ـ الاستاذ الدكتور يوسف عزالدين : استاذ بجامعة الرياض (المملكة العربية السعودية) (العراق) .

14 ـ الاستاذ عبد الكريم غلاب : أديب ـ عضو بالمجمع الملكى بالرباط ـ الوزير المنتدب لدى الوزير الاول بالمغرب .

15) الاستاذ الدكتور جوزيف فان آس : استاذ الحضارة الاسلامية بجامعة توبنقان (قسم الدراسة الشرقية) ـ المانيا الغربية .

16 ـ الاستاذ الدكتور شكرى فيصل : استاذ الدراسات العليا فى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

17 ـ الاستاذ الدكتور فرانسسكو قابريلى : استاذ بمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة رومة ـ عضو بالمجمع الايطالى .

18 ـ الاستاذ رجاء قارودى : استاذ مبرز فى الفلسفة وأديب .

19 ـ الاستاذ الدكتور اميليو قارسيا قوميز : استاذ اللغة العربية بجامعتى غرناطة ومدريد ـ مدير المعهد العربى ـ الاسبانى ـ عضو بالمجمع الملكى الاسبانى .

20 ـ الاستاذ سين ماكبريد : جائزة نوبل للسلام ـ جائزة لينين .

21 ـ الاستاذ أحمد مختار امبو : المدير العام لمنظمة اليونسكو .

22 ـ الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور : رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

23 ـ الاستاذ عبد المجيد مزيان : وزير الثقافة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .

24 ـ الاستاذ الدكتور أندري ميكال : استاذ بالكوليج دى فرانس (كرسى اللغة والآداب العربية) .

25 ـ الاستاذ الدكتور عبد الله ناصيف : استاذ مدير جامعة الملك عبد العزيز ـ الامين العام لرابطة العالم الاسلامى .

26 ـ الاستاذ الدكتور محمد يوسف نجم : استاذ الادب العربى فى الجامعة الاميركية ببيروت ـ عضو المجمع الملكى لبحوث الحضارة الاسلامية بالاردن .

27 ـ الاستاذ ميخائيل نعيمة : أديب ومفكر .

28 ـ الاستاذ الشيخ أبو الحسن علي ندوى : باحث ـ رئيس المعاهد الاسلامية لكناهو (الهند) .

29 ـ الاستاذ الدكتور آكيو نكانو : استاذ بجامعة طوكيو (اليابان) .

● **ديمقراطية من أجل البناء والتشييد :**

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الصباح » بتاريخ 1983/12/15 مقالا

عن الديمقراطية فى تونس بقلم الاستاذ أبى زيان السعدى . نقتطف منه ما يلى تشميلا للفائدة :

يحق لى كمواطن تونسى يحب وطنه حبا عميقا ، ان يعلن اغتباطه بما يتحقق كل مرة من عمل ايجابى صغيرا كان أو كبيرا ، ينهض ببلادنا نحو العزة والقوة والازدهار ، ويوفر لها شروطا اكمل ، لممارسة دورها الحضارى الذى هيأه لها قدرها التاريخى كصاحبة قيم اصيلة خالدة ، ذات موقع استراتيجى فريد ، يتيح لها الحوار الكفء مع قوى التحضر المختلفة ، وان تستفيد الاستفادة البناءة ، فى غير ما انبهار او تعجل ، فتكون بالتالى مهيأة لصياغة تجربتها وتقديمها الى كل اخوانها فى المنطقة العربية ، لعل فيها ما ينفع ويعين على فك طلاسم التوفيق بين القديم والجديد ، والخروج الكبير الى الساحة الواسعة ، حيث يعيش الناس عصرهم بكل يقظة وانتباه ويمارسون مسؤولية بناء الحياة الجديدة بكل شوق وحماس وبطولة ايضا .

ومن غير شك فان القرار الاخير الذى اتخذه الرئيس الحبيب بورقيبة واعلنه دولة الوزير الاول الاستاذ محمد مزالى بالسماح لعدد من الحركات السياسية العاملة ببلادنا ، لكى تمارس مهامها الديمقراطية فى نطاق الشرعية المسؤولة ، والولاء الكامل للوطن المفدى ، ومصلحته العليا أولا وأخيرا ، هو قرار ايجابى وهام ، جدير بكل مثقف اصيل ووطنى مخلص ، وتقدمى شريف ، ان يحتفل له الاحتفال الواجب ، وان يتدبر محتواه العميق اذ يضع تونس على عتبة مرحلة جديدة وحاسمة ، تكفل لابناء شعبنا مجالا للاختيار الحر فى كل وجه من وجوه حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، ويحرر منهم الارادات ، فتعبر عن توجهاتها الحقيقية ، وتباشر دورها فى صنع مستقبل البلاد ، وتحقيق الطمأنينة والرفاه لكل فرد من افراد شعبنا الطيب.

انى لاعتبر ان عهد الاستقرار الحقيقى للبلاد قد بدأ منذ الآن وان الجماهير الشعبية بمختلف انتماءاتها السياسية والاجتماعية ستقف سدا منيعا فى وجه كل مغامر أفاك ، مهما تطرفت شعاراته ، ومهما تسترت حركاته ، وتلونت فنون حيله ، لانها مدعوة بباعث مصلحتها الى الدفاع عن مكاسبها الجديدة ، ورفض كل ما لا يتفق وحاجتها الى الحرية والاطمئنان والسلام ، وهكذا فستتفرغ جماهيرنا الى انجاز ما لم تستطع انجازه فى ماضى السنين وستكون حريصة على ان تتجنب الاخطاء التى وقعت فيها شعوب اخرى حيث استغلت الديمقراطية فى غير ما جعلت له ، ووجهت وجهة أدت الى

كوارث ومآس وفجائع ، وأقيمت الحجة فى النهاية على ان هـذه الشعـوب لم تبلغ مستوى النضج الذى يؤهلها لممارسة حقها الديمقراطى !

وبالطبع فان الديمقراطية فى هذه المرحلة من تطور بلادنا ، تحتاج احتياجا أكيدا ، الى رعاية وحماية ، من ذوى الرأى الصائب ، وأهل التوجيه القويم ، وأصحاب النظر البعيد ، سواء احتوتهم احزاب او بقوا فى السـاحة يراقبون ويتأملون ، فلا بد ان يقع التفكير بجد فى وضع مخطط دقيق ، يعلم المواطن حقه وواجبه ، ويبصره بالحدود التى تنتهى فيها حريته لترتبط بحرية الجماعة الكبيرة ومصلحة الوطن العاجلة والآجلة ، وان يجد فى هذا المخطط المنـاخ الصالح الذى يساعده على نمو ملكـاته الفكـرية ، والـروحية والسلـوكية ، فتتشذب غرائزه القبيلية العشائرية والجهوية ، ويرتقى الى مستوى المسؤولية الواعية التى ما هى فى الحقيقة الا حرية واختيار ، وبـذلك نتجنب الجـزئى العارض ، والشخصى الضيق الى معالجة القضايا الاساسية ، والخلاف حـول الاصول التى يتوقف على حلها تقدم البلاد وتطورهـا ، من هـذه المـرحلة الى مرحلة افضل واكمل .

ومن هنا جاءت كلمة الوزير الاول معبرة كل التعبير عما نحتاجه فى هذه المرحلة الجديدة ، وعن الثقة التى يتأملها فى شعبنا التونسى النبيل ، حينما قال : « إنى معتز بأن أعلن عن هذا القـرار الرئـاسى وأن أعبـر عن رجـاء الرئيس والحكومة بأن يكون لهذا القرار مفعوله الايجابى ، فيما يتعلق بمزيد الوعى عند الجميع للسير بالشعب التونسى خطوة خطوة ، نحـو المزيـد من الحرية الواعية والديمقراطية المسؤولة ، وإنى لمتيقن ان كل القوى الحيـة فى البلاد ستتضافر جهودها للعمل فى هذا الاتجاه .

ومن وجه آخر فان الرجل الذى أعلن هذا القرار التـاريخى وتحمس لـه الحماس الذى رأيناه فى بيانه يعرفه الخاص والعام منذ مدة طويلة ، بمواقفه الديمقراطية فى كثير من قضايا الفكر والسياسة والثقافة فلقد كان محمـد مزالى منذ فجر حياته الفكرية والسياسية ، نصيرا للحوار والنقاش ، دؤوبـا على بسط آرائه ، وتقديم الحجة الواضحة على صحة ما يقول دون ان يستسهل اللجوء الى الضغط والضرب على المناضد ، أو التلويح بالعصا الغليظة وكثير من الناس ما زالوا يتذكرون فى بداية استقلال تونس ، جولاته العريضة فى انحاء البلاد يشرح للمواطنين « حقوق الناخب » و « واجبـات المـواطن » ، و « مفهوم الديمقراطية فى الدولة الحديثة » ولا بد انهم ما زالـوا يتذكـرون

كتابه الاول « الديمقراطية » وحماسه لمضمونها ، ودفاعه الحار عن ايجابياتها ، لتحرير الوطن من مخلفات الضعف والتخلف ، وكذلك مـا حفلت به كتبه الاخرى ومقالاته العديدة بمجلة « الفكر » الصامدةمن تبشير بدور الكلمة في ايقاظ الوعي الوطني ، ودعوة الكتاب والمواطنين المثقفين الى الحوار والنقاش ، وبسط آرائهم المتعددة ، حتى تتضح سبل الحل وتنعقد الآراء حـول منهـج يأخذ به الجميع في معركة البناء والتشييد ، حتى غدت مجلته « الفكر » منبرا وملتقى لكل الآراء الايجابية ، وتخرج منها الكثير من كتابنا الذين نعتز بهم ، ونعتبرهم مكسبا هاما قد حققته هذه المجلة وصاحبها الرائد وهو في الآن نفسه رجل عمل وتنفيذ يسرع الى تطبيق ما يعتقد انه الحق والصواب ، فما ان تولى مسؤولية وزارة التربية القومية ، حتى جعل ديمقراطية التعليم حقيقة واقعة ، تشمل المدينة والقرية والسهل والجبل ، وكانت بفضله هذه النهضة التعليمية الشاملة التي تعيشها بلادنا ، في سنوات قليلة ، بالقياس الى شعوب اخرى سبقتنا الى الاستقلال والتحرر ، ثم انه أسرع بمجرد توليه مسؤولية الوزارة الاولى ، الى طرح قضية الديمقراطية للنقاش والحوار وانحيازه الواضـح لهـا سواء بملتقيات الحزب الاشتراكي الدستوري الذي يتولى امانته العامة او في أثناء محاضراته وخطبه بدواعيها المختلفة،وها هو الآن يحقق هدفا هاما آخر كان حلما في وقت من الاوقات ، وبذلك كان وفيا كل الوفاء ، للوعود التي أعلنها لنا ولنفسه أيضا ، وبتنا وجها لوجه امام تجربة ، يتمنى كل تونسي مخلص ان تنجح وان تصل الى تحقيق أهدافهـا في بنـاء تـونس وتطورهـا وتقدمهـا .

● **جائزة من السربون لباحث عربي :**

فاز الدكتور نبيل راغب بجائزة السربون الدولية للـدراسات الشـرقية عن كتابه « التفسير العلمي للادب » وهو دراسة تـربط بين الادب والعلـم بهدف ايجاد نظرية شاملة للمعرفة الانسانية لا تقسم المفكرين الى قبيلة للعلماء وأخرى للادباء وقد انشئت هذه الجائزة تحت رعـاية اليـنسكـو منـذ سبـع سنوات ، ويعتبر الفوز بها تزكية للترشيح لجوائز نوبل للادب والسـلام اذ توفر على لجنة التحكيم بها مشقة البحث عن الانجازات الجديدة في المناطق التي لا تنطق بلغات عالمية .

● **مهـرجـان الطفـولـة :**

انطلق يوم 28 من شهر نوفمبر بدار الثقافة ابـن خلـدون بالعاصمة والى غاية يوم 1 من شهر ديسمبر اسبوع ثقـافي للاطفال تشـرف عليه منظمـة

المصائف والجولات . وقد لقي هذا المهرجان اقبالا كبيرا من طرف الاطفال الذين وجدوا فيه خير متنفس لهم بمناسبة عطلة الشتاء التى استمرت اسبوعا كاملا .

● **نداء الى رجال الفكر والباحثين :**

فى نطاق توجه بلدية تونس العاصمة الى المحافظة على تراث المدينة والتعريف برجالاتها ومعالمها الفكرية والحضارية ، ومساهمة منها فى دعم سبل البحث والدراسة ، ومختلف الانشطة الثقافية ، يتشرف رئيس بلدية تونس شيخ المدينة باعلام السادة متساكنى العاصمة ورجالات الفكر والباحثين ، انه تم تأسيس « مكتبة مدينة تونس » دار ابن عاشور 46 و 52 نهج الباشا بالمدينة العتيقة ، تهدف الى تجميع كافة المنشورات والدوريات والوثائق والنشريات والخرائط ذات الصبغة الثقافية والتاريخية والمعمارية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية ، وكل ما يشمله ميدان البحث والدراسة، تكون نقطة اشعاع لمدينة تونس ، تعرف بها وباعلامها ومعالمها الماضية والحاضرة والمستقبلية تكون تحت تصرف الباحثين والجامعيين والمختصين ، لتعميم الفائدة للمتساكنين .

ومن هذا المنطلق ، ولغاية ارساء تقاليد جديدة فى البحث والدراسة تساهم فى الرفع من مكانة مدينة تونس . ولدعم جهود ابنائها الفردية والظرفية فى المحافظة على تراث المدينة ، يهيب رئيس البلدية شيخ المدينة بالسادة الكتاب والادباء ، والباحثين والمؤرخين وبكل الذين يتوفر لديهم ما يمكن ان يدعم هذه المكتبة بالمؤلفات والبحوث مطبوعة او مخطوطة او غيرها ، سواء بالتبرع او الايداع .

هذا ، والبلدية حريصة على توفير كل الضمانات والظروف الطبيعية والتقنية الملائمة لصيانة ما يتجمع لديها من وثائق ومؤلفات .

ولمزيد الارشادات يمكن الاتصال بمكتبة مدينة تونس (دار ابن عاشور) عدد 46 و 52 نهج الباشا ، او مصلحة الثقافة نهج اليونان – تونس – الهاتف : 248.983 .

والامل وطيد فى تفهم متساكنى العاصمة للغاية النبيلة والمرجوة من هذا الانجاز الثقافى الهام .

● البشيـر خـريف فقيدنـا العزيـز :

تلقت الأسرة الثقافية مساء يوم الاثنين 83/12/19 بمزيد الأسى والألم نعي الأديب الراحل عنا في صمت .. التارك في أعماقنا نعيب الحسرة يشج مسامعنا صارخا : مات البشير خريف القصاص التونسي الذي شغل الأقلام ردحا من الزمن وجعلها تنكب في تحبير كتابات طويلة جادة لتبين ملامح القصة التونسية وتجسيمها رويدا رويدا على يد القصاص البارع المرحوم البشير خريف الذي شيعنا جثمانه صبيحة يوم الثلاثاء 20 ديسمبر 1983 الى مقبرة الجلاز حيث انتظم موكب الوداع الرهيب الذي ألقى فيه الاستاذ الشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية كلمة التأبين التالية :

الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر ،

بمنتهى الاسف وبالغ الحسرة تشيع أسرة الادب والثقافة اليوم عضوا من أعضائها اللامعين وركنا بارزا من مبدعيها المعطائين هو الاديب المعروف المأسوف عليه صديقنا العزيز البشير خريف ، فقيد الادب التونسي والادب العربي وفقيد الثقافة الانسانية التي عرفته من خلال مؤلفاته المنقولة الى عدة لغات في العالم .

لقد سخر فقيدنا الكبير حياته كاملة للبذل والعطاء في مجالي التأليف والابداع . فظهرت كتاباته الاولى منذ الثلاثينات ، فكان رائدا من رواد الادب القصصي في تونس والوطن العربي عموما ، وظل عطاؤه متواصلا حتى آخر لحظة من حياته المعطاء ، فأثرى الفكر الانساني والادب العربي بروائع قصصية اجمع الجميع على الاعتراف بمكانتها المتميزة واللائقة في أدبنا الحديث والمعاصر ، ولقد استطاع بحسه المرهف وعفويته الفائقة أن ينفذ الى روح الشعب وأن يعبر عن أعمق احساسه وأدق مشاعره وأن يحمل طموحاته وآماله ونضالاته في سبيل غد أفضل .

تلك روح نجدها متجسدة - على المستويين التاريخي والاجتماعي - في رواياته وأقاصيصه ومشاريعه المتعددة المخطوطة التامة وغير التامة ذلك أن البشير خريف من أولائك الذين نذروا أنفسهم الى الادب والابداع وآلوا أن يعيشوا له مهما كلفهم ذلك من

عنت وجهد وهو من يوم أن عرفه جمهور القراء من خلال مجلة « الفكر » التى فسحت له المجال رغم تفرده بأسلوب متميز وطريقة فريدة بتشجيع من مديرها الاستاذ محمد مزالى لم يبرح الساحة الادبية يمنحها من نفسه الخلاقة وأسلوبه الخاص ما جعله بحق يشق الطريق لفن القصة التونسية لحما ودما والانسانية أبعادا وآفاقا .

ولقد كان لفقيد الادب فى تونس ، البشير خريف ، طابعه المتميز فى ابداعه القصصى الخالد : استمد أصوله من بيئة الجريد التونسى ونفحاته ، وأضفى عليه مسحة تونسية عريقة الحضارة ، وزاده قوة ما يتمتع به من ثقافة متينة واطلاع واسع ، فسما بابداعه الى مستوى انسانى رحب جعل منه دون منازع فى منزلة الكبار من الكتاب .

وهكذا يمكن القول : إن البشير خريف كان صاحب مدرسة متميزة فى الانتاج القصصى ، ولقد أصبحت هذه المدرسة موضع البحث والدراسة والترجمة فى مؤسسات العلم والمعرفة ، كما أصبحت منهلا عذبا وثريا تربت على أساسه الطليعة من أجيال الدارسين .

ولقد أحرز الفقيد على تقدير أصحاب الذكر فنال :

- الجائزة الاولى لبلدية تونس فى الانتاج الادبى سنة 1960 .
- والجائزة التقديرية لبلدية تونس سنة 1982 :

وانه يجب التأكيد بدون مبالغة ولا مواربة أن أدب البشير خريف لم يكن له ليظهر لولا مجلة « الفكر » فى عهد الاستقلال وفى ظل سياسة ثقافية تنطلق من خصائص الشعب التونسى وتنهل من واقعه ومقوماته وتكره التفسخ فى ثقافة دخيلة والتصنع فى أدب أرستقراطى فوجد انتاج البشير خريف فى النظام البورقيبى خير سند له فاهتمت به دور النشر الحكومية وأولته الجامعة التونسية عناية فائقة وعملت مؤسسات الدولة على التعريف به فى مجالات عالمية عديدة .

وعسى أن يكون فى اخلاص الاجيال من المبدعين والقراء لتـراثه وانتاجه وفى تناولها لمؤلفاته بالدرس والتحليل والتعمق ما يكمـل هذا التقدير ويستوفيه حقه وينصف الفقيـد ويضعـه فى مـرتبته اللائقة بين كبار المبدعين .

تغمد الله فقيدنا بواسع رحمته ورزق ذويه وأهله وأسرة الثقافة فى تونس والوطن العربى جميل الصبر والسلوان .

مـا أسـرع الأيـام فى طيهـا !
تمضـي علينـا ثـم تمضـي بنـا

فوداعا صديقنا وكاتبنا الكبير ... وداعا ،

لقد انتزعتك منا يد المنون فجاة فحرمنا بذلك تواصل جميل عطائك وحسن معشرك ودماثة خلقك ، وفقدنا فيك المبدع الطريف والصديق العزيز والخل الودود ...

ونحن الذين كنا نحسب أن العمر سيطول بك حتى نوفيك حقك علينا ونأنس بك أنس البهجة والفرحة بالتكريم والاحتفاء . ولله در ابن المقفع عندما قال :

أمـا تـرى الغـرس لا تـذوى كـرائمـه
الا عـلى سـوقهـا فـى سـائـر الابد !؟

فوداعا لحضورك الوديع بيننا ... ولكن لك علينا واجـب الذكـر الدائم والعناية المستديمة .

تغمـدك اللـه برحمتـه الـواسعة
وأسكنـك فـراديـس جنـانـه